۞ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ
أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ
وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٢٤
وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ
فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ
فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ
فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ
ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٥
يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٢٦

*الصحيح المسند من أسباب النزول:-مسلم (1456) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ بَعَثَ جَيْشًا إِلَى أَوْطَاسَ (موضع عند الطائف يصرف ولا يصرف) فَلَقُوا عَدُوًّا فَقَاتَلُوهُمْ فَظَهَرُوا عَلَيْهِمْ وَ أَصَابُوا لَهُمْ سَبَايَا فَكَأَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَحَرَّجُوا (خافوا الخرج وهو الإثم من غشيانهن أى من وطئهن من أجل أنهن زوجات و المزوجة لا تحل لغير زوجها) مِنْ غِشْيَانِهِنَّ مِنْ أَجْلِ أَزْوَاجِهِنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ذَلِكَ:- {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ}[النساء: 24] أَيْ: فَهُنَّ لَكُمْ حَلَالٌ إِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهُنَّ

(المراد بالمحصنات هنا المزوجات و معناه و المزوجات حرام على غير أزواجهن إلا ما ملكتم بالسبى فإنه ينفسخ نكاح زوجها الكافر وتحل لكم إذا انقضى استبراؤها – قال الجزائري:-سميت محصنة لان الزوج قد حفظها باستقلاله بها عن غيره و المراد بقوله إذا انقضت عدتهن أى استبراؤهن و هي بوضع الحمل من الحامل و بحيضة من الحائل)

(وَ)من المحرمات فى النكاح :-(وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ)الْعَفَائِفَ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ حَتَّى تَمْلِكُوا عِصْمَتَهُنَّ بِـــ:- نِكَاحٍ وَ شُهُودٍ وَ مُهُورٍ وَ وَلِيٍّ "وَاحِدَةً أَوِ اثْنَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا

(مِنَ ٱلنِّسَآءِ)ذوات الأزواج.

*فإنه يحرم نكاحهن ما دمن فى ذمة الزوج حتى تطلق و تنقضى عدتها.

(إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ)بالسبى فإذا سبيت الكافرة ذات الزوج حلت للمسلمين بعد أن تستبرأ.

*و أما إذا بيعت الأمة المزوجة أو وهبت فإنه لا ينفسخ نكاحها لأن المالك الثانى نزل منزلة الأول و لقصة بريرة حين خيرها النبى ﷺ.

الزموا(كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ)و اهتدوا به فإن فيه الشفاء و النور و فيه تفصيل الحلال من الحرام.

و دخل فى قوله: (وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ)كلُّ ما لم يذكر فى هذه الآية فإنه حلال طيب.

*فالحرام محصور و الحلال ليس له حد و لا حصر لطفًا من الله و رحمة و تيسيرًا للعباد.

(أَن تَبۡتَغُواْ)تطلبوا(بِأَمۡوَٰلِكُم)من وقع عليه نظركم و اختياركم من اللاتى أباحهن الله لكم

حالة كونكم(مُّحۡصِنِينَ)مستعفين عن الزنا و معفين نساءكم.

(غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ)و السفح:-سفح الماء فى الحلال و الحرام

فإن الفاعل لذلك لا يحصن زوجته لكونه وضع شهوته فى الحرام فتضعف داعيته للحلال فلا يبقى محصنا

لزوجته.

و فيها دلالة على أنه لا يزوج غير العفيف لقوله(الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُهَا إِلا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ)

(أَن تَبۡتَغُواْ)تَحَصَّلُوا(بِأَمۡوَٰلِكُم)مِنَ الزَّوْجَاتِ إِلَى أَرْبَعٍ أَوِ السَّرَارِى مَا شِئْتُمْ بِالطَّرِيقِ الشَّرْعِيِّ

وَ لِهَذَا قَالَ:-(مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ)

(فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ)بنيتم بهن و دخلتم عليهن(مِنۡهُنَّ)ممن تزوجتموها بالنكاح الصحيح

(فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ)مهورهن–الأجور فى مقابلة الاستمتاع.و لهذا إذا دخل الزوج بزوجته تقرر عليه صداقها

إتيانكم إياهن أجورهن(فَرِيضَةًۚ)فرض فرضه الله عليكم ليس بمنزلة التبرع الذى إن شاء أمضاه و إن شاء رده.

أو معنى قوله (فَرِيضَةً)مقدرة قد قدرتموها فوجبت عليكم فلا تنقصوا منها شيئًا.

كَقَوْلِه:-{وَ كَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ}[النِّسَاءِ: 21]وَ كَقَوْلِه{وَ آتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً}[النساء:4]

و كقوله{وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا} [البقرة: 229]

*وَ قَدِ اسْتُدِلَّ بِعُمُومِ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى نِكَاحِ الْمُتْعَةِ وَ لَا شَكَّ أَنَّهُ كَانَ مَشْرُوعًا فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ ثُمَّ نُسِخَ بَعْدَ ذَلِكَ

*البخارى5115–عن علىﷺقَالَ لِابْنِ عَبَّاسٍ:إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنِ الْمُتْعَةِ وَ عَنْ لُحُومِ الحُمُرِ الأَهْلِيَّةِ زَمَنَ خَيْبَرَ

*مسلم(1406)عن سَبْرَةَ بن معبد الْجُهَنِيُّ أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺفَقَالَ:«يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ كُنْتُ أَذِنْتُ لَكُمْ فِي الِاسْتِمْتَاعِ مِنَ النِّسَاءِ(فى هذا الحديث التصريح بالمنسوخ والناسخ في حديث واحد من كلام رسول الله ﷺكحديث[كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها]و فيه التصريح بتحريم نكاح المتعة إلى يوم القيامة)وَ إِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنْهُنَّ شَيْءٌ فَلْيُخَلِّ سَبِيلَهُ وَ لَا تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا»

(وَلَا جُنَاحَ)إثم(عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم)فيما تمَّ التراضى(بِهِۦ)بينكم من الزيادة أو النقصان فى المهر

(مِنۢ بَعۡدِ)ثبوت(ٱلۡفَرِيضَةِۚ)

1–بزيادة من الزوج 2–أو إسقاط من الزوجة عن رضا و طيب نفس هذا قول كثير من المفسرين

*و قال كثير منهم:–إنها نزلت فى متعة النساء التى كانت حلالا فى أول الإسلام ثم حرمها النبى ﷺ

*و أنه يؤمر بتوقيتها و أجرها ثم إذا انقضى الأمد الذى بينهما فتراضيا بعد الفريضة فلا حرج عليهما

(إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا)كامل العلم واسعه(حَكِيمًا)كامل الحكمة:-

1-فمن علمه و حكمته شرع لكم هذه الشرائع 2-و حد لكم هذه الحدود الفاصلة بين الحلال و الحرام24

(وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا)الطول:- الذى هو المهر-سعة و قدرة

(أَن يَنكِحَ)لنكاح (ٱلْمُحْصَنَٰتِ)الحرائر(ٱلْمُؤْمِنَٰتِ)

(فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم)فله أن ينكح غيرهن(مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ)المملوكات

(وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍۚ)

و هذا بحسب ما يظهر و إلا فالله أعلم بالمؤمن الصادق من غيره فأمور الدنيا مبنية على ظواهر الأمور

و أحكام الآخرة مبنية على ما فى البواطن

(فَٱنكِحُوهُنَّ)أى:المملوكات

(بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ)أى: سيدهن واحدا أو متعددا-فدل ذلك على أن السيد ولى أمته لا تُزَوَّج الا بإذنه

(وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ)أى:و لو كن إماء فإنه كما يجب المهر للحرة فكذلك يجب للأمة.

و لكن لا يجوز نكاح الإماء إلا إذا كن(مُحْصَنَٰتٍ)أى: عفيفات عن الزنا

(غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ)أى: زانيات علانية-الزوانى الاتى لا يمنعن من أرادهن بالفاحشة

(وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍۚ)أخلاء فى السر.

فالحاصل أنه لا يجوز للحر المسلم نكاح أمة إلا بأربعة شروط ذكرها الله:-

1-الإيمان بهن 2-و العفة ظاهرا و باطنا 3-و عدم استطاعة طول الحرة 4-و خوف العنت

فإذا تمت هذه الشروط جاز له نكاحهن.

(فَإِذَآ أُحْصِنَّ)تزوجن أو أسلمن أى:- الإماء

(فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ)الحرائر

(مِنَ ٱلْعَذَابِۚ)و ذلك الذى يمكن تنصيفه و هو: الجَلد فيكون عليهن خمسون جَلدة.

و أما الرجم فليس على الإماء رجم لأنه لا يتنصف

فعلى القول الأول :-إذا لم يتزوجن فليس عليهن حد إنما عليهن تعزير يردعهن عن فعل الفاحشة.

و على القول الثانى:-إن الإماء غير المسلمات إذا فعلن فاحشة أيضا عزرن.

(ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْۚ)و خاف على نفسه(ٱلْعَنَتَ)الزنا و المشقة الكثيرة (مِنكُمْۚ)

فيجوز له نكاح الإماء المملوكات المؤمنات.

و مع هذا (وَأَن تَصۡبِرُواْ)فالصبر عن نكاحهن(خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ)لما فيه من:-

1-تعريض الأولاد للرق 2-و لما فيه من الدناءة و العيب.

و هذا إذا أمكن الصبر فإن لم يمكن الصبر عن المحرم إلا بنكاحهن وجب ذلك.

(وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ)و ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين « الغفور و الرحيم »
لكون هذه الأحكام رحمةً بالعباد و كرمًا و إحسانًا إليهم فلم يضيق عليهم بل وسع غاية السعة.

*و لعل في ذكر المغفرة بعد ذكر الحد إشارة إلى أن الحدود كفارات يغفر الله بها ذنوب عباده كما ورد بذلك الحديث. و حكم العبد الذكر في الحد المذكور حكم الأمة لعدم الفارق بينهما25

من نعم الله 26-28

*يخبر تعالى بمنته العظيمة و منحته الجسيمة و حسن تربيته لعباده المؤمنين و سهولة دينه فقال:-

(يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ)جميع ما تحتاجون إلى بيانه من الحق و الباطل و الحلال و الحرام

(وَيَهۡدِيَكُمۡ)يدلكم على(سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ)في الحلال و الحرام الذين أنعم الله عليهم من النبيين و الصالحين و أتباعهم في سيرهم الحميدة و أفعالهم السديدة و شمائلهم الكاملة و توفيقهم التام.

فلذلك نفذ ما أراده و وضح لكم و بَيَّن بيانا كما بين لمن قبلكم و هداكم هداية عظيمة في العلم و العمل.

(وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ)

1-يلطف لكم في أحوالكم و ما شرعه لكم حتى تمكنوا من الوقوف على ما حده الله

2-و الاكتفاء بما أحله فتقل ذنوبكم بسبب ما يسر الله عليكم فهذا من توبته على عباده.

3-و من توبته عليهم أنهم إذا أذنبوا-

1-فتح لهم أبواب الرحمة 2-و أوزع قلوبهم الإنابة إليه و التذلل بين يديه

ثم يتوب عليهم :-بقبول ما وفقهم له.فله الحمد و الشكر على ذلك.

(وَٱللَّهُ عَلِيمٌ)فمن علمه أن:-علَّمكم ما لم تكونوا تعلمون و منها هذه الأشياء و الحدود.

(حَكِيمٞ)كامل الحكمة .و من حكمته أنه:-

1-يتوب على من اقتضت حكمته و رحمته التوبة عليه

2-و يخذل من اقتضت حكمته و عدله من لا يصلح للتوبة٢٦

وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴿٢٧﴾
يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ
أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ
وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ
نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾
وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ
وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٣٢﴾
وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾

(وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ)أي: توبة تلم شعثكم و تجمع متفرقكم و تقرب بعيدكم.

(وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ)يُريد أَتْبَاعُ الشَّيَاطِينِ مِنَ الْيَهُودِ وَ النَّصَارَى وَ الزُّنَاةِ

أي: يميلون معها حيث مالت و يقدمونها على ما فيه رضا محبوبهم و يعبدون أهواءهم من أصناف الكفرة و العاصين المقدمين لأهوائهم على طاعة ربهم فهؤلاء يريدون

(أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا)

1–أن تنحرفوا عن الصراط المستقيم إلى صراط المغضوب عليهم و الضالين.

2–يريدون أن يصرفوكم عن طاعة الرحمن إلى طاعة الشيطان

3–و عن التزام حدود من السعادة كلها في امتثال أوامره← إلى مَنْ الشقاوةُ كلها في اتباعه.

*فإذا عرفتم:–

1–أن الله تعالى يأمركم بما فيه صلاحكم و فلاحكم و سعادتكم

2–و أن هؤلاء المتبعين لشهواتهم يأمرونكم بما فيه غاية الخسار و الشقاء

فاختاروا لأنفسكم أوْلى الداعيين و تخيّروا أحسن الطريقتين27

(يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا)

أى:بسهولة ما أمركم به و ما نهاكم عنه((فى شرائعه و أوامره و نواهيه)))

ثم مع حصول المشقة فى بعض الشرائع أباح لكم ما تقتضيه حاجتكم

كـ:-1-الميتة 2-و الدم و نحوهما للمضطر 3-و كتزوج الأمة للحر بتلك الشروط السابقة.

و ذلك لـ:-1-رحمته التامة و إحسانه الشامل 2-و علمه و حكمته بضعف الإنسان من جميع الوجوه:-

1-ضعف البنية 2-و ضعف الإرادة 3-و ضعف العزيمة 4-و ضعف الإيمان 5-و ضعف الصبر

فناسب ذلك أن يخفف الله عنه ما يضعف عنه و ما لا يطيقه إيمانه و صبره و قوته.

حرمة أموال المسلمين و انفسهم 29-30

*ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل

و هذا يشمل أكلها بـــ:-

1-الغصوب 2-و السرقات 3-و أخذها بالقمار 4-و المكاسب الرديئة.

5-بل لعله يدخل فى ذلك أكل مال نفسك على وجه البطر و الإسراف لأن هذا من الباطل و ليس من الحق.

ثم إنه - لما حرم أكلها بالباطل- أباح لهم أكلها بـــ:-

1-التجارات 2-و المكاسب الخالية من الموانع المشتملة على الشروط من التراضى و غيره28

(وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ)

1-لا يقتل بعضكم بعضًا 2-و لا يقتل الإنسان نفسه 3-و يدخل فى ذلك الإلقاءُ بالنفس إلى التهلكة

4-و فعلُ الأخطار المفضية إلى التلف و الهلاك

*البخارى5778-عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺعَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:-

مَنْ تَرَدَّى(أسقط نفسه)مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا

وَ مَنْ تَحَسَّى(شرب و تجرع)سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا

وَ مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ(يطعن ويضرب)بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا»

*مسلم (113)عن قَالَ:سَمِعْتُ الْحَسَنَ يَقُولُ:إِنَّ رَجُلًا مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ خَرَجَتْ بِهِ قُرْحَةٌ

(القرحة واحدة القروح وهى حبات تخرج في بدن الإنسان)فَلَمَّا آذَتْهُ انْتَزَعَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ(الكنانة هى جعبة النشاب سميت كنانة لأنها تكن السهام أى تسترها)فَنَكَأَهَا(قشرها وخرقها وفتحها)فَلَمْ يَرْقَأِ الدَّمُ(لم ينقطع يقال رقأ الدم والدمع يرقأ رقوءا مثل ركع يركع ركوعا إذا سكن وانقطع)حَتَّى مَاتَ

قَالَ رَبُّكُمْ: «قَدْ حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ إِلَى الْمَسْجِدِ فَقَالَ:-

إِي وَ اللهِ لَقَدْ حَدَّثَنِي بِهَذَا الْحَدِيثِ جُنْدَبٌ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺفِي هَذَا الْمَسْجِدِ.

*و تأمل هذا الإيجاز و الجمع فى قوله:-(لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم)و(وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ)كيف شمل أموال غيرك و مال نفسك و قتل نفسك و قتل غيرك بعبارة أخصر من قوله:-« لا يأكل بعضكم مال بعض »و« لا يقتل بعضكم بعضًا »مع قصور هذه العبارة على مال الغير و نفس الغير فقط.

-مع أن إضافة الأموال و الأنفس إلى عموم المؤمنين فيه دلالة على أن:-

المؤمنين في توادهم و تراحمهم و تعاطفهم و مصالحهم كالجسد الواحد حيث كان الإيمان يجمعهم على مصالحهم الدينية و الدنيوية.

*و لما نهى عن أكل الأموال بالباطل التي فيها غاية الضرر عليهم على الآكل و من أخذ ماله :-

أباح لهم ما فيه مصلحتهم من:-1-أنواع المكاسب و التجارات 2-و أنواع الحرف و الإجارات فقال:-

(إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمۡ)فإنها مباحة لكم.

و شَرَطَ التراضي – مع كونها تجارة- لدلالة أنه يشترط أن يكون:-

1-العقد غير عقد ربا لأن الربا ليس من التجارة بل مخالف لمقصودها

2-و أنه لا بد أن يرضى كل من المتعاقدين و يأتي به اختيارًا

3-و من تمام الرضا أن يكون المعقود عليه معلوما

لأنه إذا لم يكن كذلك لا يتصور الرضا مقدورًا على تسليمه لأن غير المقدور عليه شبيه ببيع القمار

←فبيع الغرر بجميع أنواعه خال من الرضا فلا ينفذ عقده.

*و فيها أنه تنعقد العقود بما دل عليها من قول أو فعل لأن الله شَرَط الرضا فبأي طريق حصل الرضا انعقد به العقد.

ثم ختم الآية بقوله: (إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمًا)

و من رحمته أن:-

1- صان نفوسكم و أموالكم 2-و نهاكم عن إضاعتها و إتلافها 3-و رتب على ذلك ما رتبه من الحدود.

4-عصم دماءكم و أموالكم و صانها و نهاكم عن انتهاكها.

ثم قال:(وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ)أكل الأموال بالباطل و قتل النفوس

(عُدۡوَٰنًا وَظُلۡمًا)لا جهلا و نسيانا

(فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارًا)عظيمة كما يفيده التنكير

(وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا)30

ثواب تجنب الكبيرة و النهى عن الاعتماد على التمنى 31-33

(إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ)و هذا من فضل الله وإحسانه على عباده المؤمنين

و عدهم أنهم إذا اجتنبوا كبائر المنهيات:-1-غفر لهم جميع الذنوب و السيئات(صغائر الذنوب)

2-(وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلًا كَرِيمًا)كثير الخير و هو الجنة المشتملة على:-

1-ما لا عيــن رأت 2-و لا أذن سمعت 3-و لا خطر على قلب بشر

و يدخل في اجتناب الكبائر فعل الفرائض التى يكون تاركها مرتكبا كبيرة كالصلوات الخمس و الجمعة و صوم رمضان كما قال النبى ﷺ:-

«الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة و رمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهما ما اجتنبت الكبائر »

و أحسن ما حُدت به الكبائر أن الكبيرة ما فيه:-

1- حد فى الدنيا2-أو وعيد فى الآخرة (فى كتاب أو سنة)3-أو نفى إيمان

4-أو ترتيب لعنة 5-أو غضب عليه

*البخارى 2766 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:-

اجْتَنِبُوا(ابتعدوا) السَّبْعَ المُوبِقَاتِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَ مَا هُنَّ؟ قَالَ:-

1-الشِّرْكُ بِاللَّهِ 2-وَ السِّحْرُ(هو في اللغة عبارة عما لطف وخفى سببه وبمعنى صرف الشيء عن وجهه ويستعمل بمعنى الخداع.والمراد هنا ما يفعله المشعوذون من تخييلات وتمويه تأخذ أبصار المشاهدين وتوهمهم الإتيان بحقيقة أو تغييرها) 3-وَ قَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ(كالقتل قصاصا)

4-وَ أَكْلُ الرِّبَا 5-وَ أَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ 6-وَ التَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ(الفرار عن القتال يوم ملاقاة الكفار والزحف فى الأصل الجماعة الذين يزحفون إلى العدو أي يمشون إليهم بمشقة مأخوذ من زحف الصبى إذا مشى على مقعدته) 7-وَ قَذْفُ(الاتهام والرمي بالزنا)المُحْصَنَاتِ(جمع محصنة وهي العفيفة التي حفظت فرجها وصانها الله من الزنا) المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ(البريئات اللواتى لا يفطن إلى ما رمين به من الفجور)»

*فَالنَّصُّ عَلَى هَذِهِ السَّبْعِ بِأَنَّهُنَّ كَبَائِرُ لَا يَنْفِي مَا عَدَاهُنَّ

*البخارى5977 عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ:-ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الكَبَائِرَ أَوْ سُئِلَ عَنِ الكَبَائِرِ

فَقَالَ: " الشِّرْكُ بِاللَّهِ وَ قَتْلُ النَّفْسِ وَ عُقُوقُ الوَالِدَيْنِ فَقَالَ:-أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟

قَالَ: قَوْلُ الزُّورِ أَوْ قَالَ:-شَهَادَةُ الزُّورِ قَالَ شُعْبَةُ: وَ أَكْثَرُ ظَنِّي أَنَّهُ قَالَ: «شَهَادَةُ الزُّورِ»

*البخارى 6919 - عن أَبِي بَكْرَةَ رضي الله عنه قَالَ:-قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:- أَكْبَرُ الكَبَائِرِ:-

1-الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ 2-وَ عُقُوقُ الوَالِدَيْنِ 3-وَ شَهَادَةُ الزُّورِ وَ شَهَادَةُ الزُّورِ - ثَلاَثًا - أَوْ: قَوْلُ الزُّورِ "

فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ

*البخارى 6001 - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟

قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَ هُوَ خَلَقَكَ» قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَأْكُلَ مَعَكَ»

قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ» وَ أَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقَ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ:-

{وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا68 يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا69 إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}[الفرقان]

*البخارى6920 -عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَاقَالَ:-جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ:-

يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الكَبَائِرُ؟ قَالَ:-«الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ»قَالَ:-ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ:-«ثُمَّ عُقُوقُ الوَالِدَيْنِ»قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟

قَالَ:«اليَمِينُ الغَمُوسُ»قُلْتُ:وَ مَا اليَمِينُ الغَمُوسُ(هى أن يحلف على خلاف ما يعلم متعمدا الكذب فى ذلك)؟قَالَ:

«الَّذِى يَقْتَطِعُ مَالَ امْرِئٍ مُسْلِم(يأخذ بسببها قطعة من ماله بغير حق) هُوَ فِيهَا كَاذِبٌ»

*البخارى 5973 - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ(يسب و يشتم)الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ»قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ وَ كَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟
قَالَ: «يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ وَ يَسُبُّ أُمَّهُ»

*البخارى 48 - عَنْ زُبَيْدٍ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا وَائِلٍ عَنْ الْمُرْجِئَةِ(الفرقة الملقبة بذلك من الإرجاء وهو التأخير سموا بذلك لأنهم يؤخرون العمل عن الإيمان يقولون لا يضر مع الإيمان معصية)فَقَالَ:حَدَّثَنِى عَبْدُ اللَّهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺقَالَ:-«سِبَابُ الْمُسْلِمِ(شتمه و التكلم في عرضه بما يعيبه و يؤذيه) فُسُوقٌ(فجور و خروج عن الحق)وَ قِتَالُهُ كُفْرٌ(أي إن استحله. و المراد إثبات ضرر المعصية مع وجود الإيمان)»

*مسلم (82) عن جَابِرٍ رضي الله عنه يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺيَقُولُ:إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَ بَيْنَ الشِّرْكِ وَ الْكُفْرِ :- تَرْكَ الصَّلَاةِ»(معناه إن الذي يمنع من كفره كونه لم يترك الصلاة فإذا تركها لم يبق بينه وبين الشرك حائل بل دخل فيه)

*البخارى553 - عَنْ أَبِي الْمَلِيحِ قَالَ: كُنَّا مَعَ بُرَيْدَةَ فِي غَزْوَةٍ فِي يَوْمٍ ذِى غَيْمٍ فَقَالَ:- بَكِّرُوا بِصَلَاةِ العَصْرِ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺقَالَ:«مَنْ تَرَكَ صَلَاةَ العَصْرِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ»(٣١)

(وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ)

*وَ لَا يَتَمَنَّى الرَّجُلُ فَيَقُولُ: "لَيْتَ لَوْ أَنَّ لِي مَالَ فُلَانٍ وَ أَهْلَهُ!
" فَنَهَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ وَ لَكِنْ يَسْأَلُ اللَّهَ مَنْ فَضْلِه.وَ هُوَ الظَّاهِرُ مِنَ الْآيَةِ وَ لَا يَرِدُّ عَلَى هَذَا مَا ثَبَتَ:

*البخارى5025 - عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺيَقُولُ:-
"لَا حَسَدَ(جائز و مشروع ومطلوب ومعناه هنا أن يشتهى أن يكون له مثل ما لغيره من النعم مع حب دوام ذلك لغيره ويسمى غبطة) إِلَّا عَلَى اثْنَتَيْنِ:-
1-رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الكِتَابَ(أعطاه القرآن حفظا وفهما) وَ قَامَ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ
2-وَ رَجُلٌ أَعْطَاهُ اللَّهُ مَالًا فَهُوَ يَتَصَدَّقُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ (ساعاته وأوقاته)

* ابن ماجه4228 -عَنْ أَبِي كَبْشَةَ الْأَنْمَارِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ "مَثَلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ كَمَثَلِ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ:-
1-رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا وَ عِلْمًا فَهُوَ يَعْمَلُ بِعِلْمِهِ فِي مَالِهِ يُنْفِقُهُ فِي حَقِّهِ
2-وَ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ عِلْمًا وَ لَمْ يُؤْتِهِ مَالًا فَهُوَ يَقُولُ:-لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ هَذَا عَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ الَّذِى يَعْمَلُ"
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ-: "فَهُمَا فِي الْأَجْرِ سَوَاءٌ"
3-وَ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا وَ لَمْ يُؤْتِهِ عِلْمًا فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ يُنْفِقُهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ
4-وَ رَجُلٌ لَمْ يُؤْتِهِ اللَّهُ عِلْمًا وَ لَا مَالًا فَهُوَ يَقُولُ:-لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ ما لِهَذَا عَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ الَّذِى يَعْمَلُ"
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ-: "فَهُمَا فِي الْوِزْرِ سَوَاءٌ"
←فَإِنَّ هَذَا شَيْءٌ غَيْرُ مَا نَهَتِ الْآيَةُ عَنْهُ وَ ذَلِكَ أَنَّ الْحَدِيثَ حَضَّ عَلَى تَمَنِّى مِثْلَ نِعْمَةِ هَذَا وَ الْآيَةُ نَهَتْ عَنْ تَمَنِّى عَيْنَ نِعْمَةِ هَذَا

*ينهى تعالى المؤمنين عن أن يتمنى بعضهم ما فضل الله به غيره من الأمور الممكنة و غير الممكنة.

1–فلا تتمنى النساء خصائص الرجال التى بها فضلهم على النساء

2–و لا صاحب الفقر و النقص حالة الغنى و الكمال:–تمنيا مجردا لأن هذا:–

1–هو الحسد بعينه((تمنى نعمة الله على غيرك أن تكون لك و يسلب إياها))

2–و لأنه يقتضى السخط على قدر الله و الإخلاد إلى الكسل و الأمانى الباطلة التى لا يقترن بها عمل و لا كسب.

*و إنما المحمود أمران:

1-أن يسعى العبد على حسب قدرته بما ينفعه من مصالحه الدينية و الدنيوية

2-و يسأل الله تعالى من فضله فلا يتكل على نفسه و لا على غير ربه.

و لهذا قال تعالى:-(لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ)من أعمالهم المنتجة للمطلوب.

(وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ)فكل منهم لا يناله غير ما كسبه و تعب فيه.

(وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ)من جميع مصالحكم فى الدين و الدنيا.

فهذا كمال العبد و عنوان سعادته لا مـــــــن:-

1-يترك العمل 2-أو يتكل على نفسه غير مفتقر لربه 3-أو يجمع بين الأمرين فإن هذا مخذول خاسر.

و قوله:-(إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا)فيعطى من يعلمه أهلا لذلك و يمنع من يعلمه غير مستحق 32

(وَلِكُلّٖ)من الناس(جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ)يتولونه و يتولاهم بالتعزز و النصرة و المعاونة على الأمور

(مِمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَۚ)

و هذا يشمل سائر الأقارب من الأصول و الفروع و الحواشى هؤلاء الموالى من القرابة.

ثم ذكر نوعا آخر من الموالى فقال:-(وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ)

حالفتموهم بما عقدتم معهم من عقد المحالفة على:-النصرة و المساعدة و الاشتراك بالأموال و غير ذلك.

*و كل هذا من نعم الله على عباده حيث كان الموالى يتعاونون بما لا يقدر عليه بعضهم مفردا.

قال تعالى: (فَـَٔاتُوهُمۡ)آتوا الموالى(نَصِيبَهُمۡۚ) الذى يجب القيام به من :-

النصرة و المعاونة و المساعدة على غير معصية الله و الميراث للأقارب الأدنين من الموالى.

*و الميراث بالتحالف كان فى أول الإسلام ثم رُفع حكمه بنزول آيات المواريث.

*البخارى4580 -عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمَا{وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ}[النساء: 33]

قَالَ: وَرَثَةً. (وَالَّذِينَ عَاقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ:-«كَانَ المُهَاجِرُونَ لَمَّا قَدِمُوا المَدِينَةَ يَرِثُ المُهَاجِرِيُّ الأَنْصَارِيَّ

دُونَ ذَوِي رَحِمِهِ لِلْأُخُوَّةِ الَّتِى آخَى النَّبِيُّﷺبَيْنَهُمْ»

فَلَمَّا نَزَلَتْ:{وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ} [النساء: 33] نُسِخَتْ ثُمَّ قَالَ:(وَالَّذِينَ عَاقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ)مِنَ النَّصْرِ وَ الرِّفَادَةِ وَ النَّصِيحَةِ

وَ قَدْ ذَهَبَ المِيرَاثُ وَ يُوصِى لَهُ سَمِعَ أَبُو أُسَامَةَ إِدْرِيسَ وَ سَمِعَ إِدْرِيسُ طَلْحَةَ

*مسلم (2530) عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-

«لَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ وَ أَيُّمَا حِلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً»

*البخارى6732 عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:-

«أَلْحِقُوا الفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا(أعطوا الأنصباء المقدرة في كتاب الله تعالى لأصحابها المستحقين لها)

فَمَا بَقِىَ(فما زاد من التركة عن أصحاب الفروض)فَهُوَ لِأَوْلَى (لأقرب وارث من العصبات)رَجُلٍ ذَكَرٍ»

(إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا)

مطلعا على كل شيء بعلمه لجميع الأمور و بصره لحركات عباده و سمعه لجميع أصواتهم33

ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ
فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ
وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ
فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾
وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ
وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ
وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾
ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ
وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾

يخبر تعالى أن (ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ)بإلزامهن بحقوق الله تعالى من:–

1– المحافظة على فرائضه 2–و كفهن عن المفاسد و الرجال عليهم أن يلزموهن بذلك

أحكام الأسرة 34-36

و قوامون عليهن أيضا بــ:–

1–الإنفاق عليهن 2–و الكسوة 3–و المسكن

*أُمَرَاءُ عَلَيْهَا أَيْ تُطِيعُهُ فِيمَا أَمَرَهَا بِهِ مِنْ طَاعَتِه

العدل 34-59

و طاعتُه:-أَنْ تَكُونَ مُحْسِنَةً إِلَى أَهْلِهِ حَافِظَةً لِمَالِهِ.

ثم ذكر السبب الموجب لقيام الرجال على النساء فقال:–

(بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ)بسبب فضل الرجال على النساء و إفضالهم عليهن

فتفضيل الرجال على النساء من وجوه متعددة: –

1–من كون الولايات مختصة بالرجال و النبوة و الرسالة

قال بن كثير:-لهذا كانت النبوة مختصة بالرجال و كذلك الملك الأعظم كما فى البخارى7099 -عَنْ أَبِي بَكْرَةَ قَالَ:-
لَقَدْ نَفَعَنِى اللَّهُ بِكَلِمَةٍ أَيَّامَ الجَمَلِ لَمَّا بَلَغَ النَّبِىَّ ﷺأَنَّ فَارِسًا مَلَّكُوا ابْنَةَ كِسْرَى قَالَ:-«لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً» و كذلك منصب القضاء

2–و اختصاصهم بكثير من العبادات كالجهاد و الأعياد و الجمع.

3–و بما خصهم الله به من العقل و الرزانة و الصبر و الجلد الذى ليس للنساء مثله.

4–و كذلك خصهم بالنفقات على الزوجات بل و كثير من النفقات يختص بها الرجال و يتميزون عن النساء

مِنَ الْمُهُورِ وَ النَّفَقَاتِ وَ الْكُلَفِ الَّتِى أَوْجَبَهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ لهنَّ فِى كِتَابِهِ وَ سُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ

*كما قال الله(وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞ)البقرة: ٢٢٨

*و لعل هذا سر قوله:-(وَبِمَآ أَنفَقُواْ)و حذف المفعول ليدل على عموم النفقة.

فَعُلِمَ من هذا كله أن الرجل كالوالى و السيد لامرأته و هى عنده عانية أسيرة خادمة فوظيفته أن يقوم بما استرعاه الله به.

و وظيفتها:- القيام بطاعة ربها و طاعة زوجها

فلهذا قال:-(فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ)مطيعات لله تعالى

(حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ)مطيعات لأزواجهن حتى فى الغيب تحفظ بعلها بنفسها و ماله

(بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ)و ذلك بحفظ الله لهن و توفيقه لهن لا من أنفسهن فإن النفس أمارة بالسوء

و لكن من توكل على الله كفاه ما أهمه من أمر دينه و دنياه.

ثم قال:-(وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ)

ارتفاعهن عن طاعة أزواجهن بأن تعصيه بالقول أو الفعل فإنه يؤدبها بالأسهل فالأسهل

*وَ النُّشُوزُ: هُوَ الِارْتِفَاعُ فَالْمَرْأَةُ النَّاشِزُ هِيَ:-الْمُرْتَفِعَةُ عَلَى زَوْجِهَا التَّارِكَةُ لِأَمْرِهِ الْمُعْرِضَةُ عَنْهُ الْمُبْغِضَةُ لَهُ

*الترمذى1159-عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:-

«لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا»

*البخارى5193 -عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺعَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:-

«إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَأَبَتْ أَنْ تَجِيءَ لَعَنَتْهَا المَلاَئِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ»

*أبي داود2142 -عَنْ مُعَاوِيَةَ الْقُشَيْرِيِّ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا حَقُّ زَوْجَةِ أَحَدِنَا عَلَيْهِ؟ قَالَ:

«أَنْ تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمْتَ وَ تَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ أَوِ اكْتَسَبْتَ .

وَ لَا تَضْرِبِ الْوَجْهَ وَ لَا تُقَبِّحْ وَ لَا تَهْجُرْإِلَّا فِي الْبَيْتِ»قَالَ أَبُو دَاوُدَ:-"وَ لَا تُقَبِّحْ أَنْ تَقُولَ: قَبَّحَكِ اللَّهُ "

(فَعِظُوهُنَّ)ببيان حكم الله فى:-

1–طاعة الزوج و معصيته

2–الترغيب فى الطاعة

3–و الترهيب من معصيته فإن انتهت فذلك المطلوب

(وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ)و إلا فيهجرها الزوج فى المضجع بأن:-لا يضاجعها و لا يجامعها بمقدار :-

ما يحصل به المقصود

(وَٱضۡرِبُوهُنَّ)و إلا ضربها ضربًا غير مبرح

(فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ)فإن حصل المقصود بواحد من هذه الأمور و أطعنكم

*ابن ماجه 1851 - عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْأَحْوَصِ قَالَ:-

حَدَّثَنِي أَبِي أَنَّهُ شَهِدَ حَجَّةَ الْوَدَاعِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِﷺ فَحَمِدَ اللهَ وَ أَثْنَى عَلَيْهِ وَ ذَكَّرَ وَ وَعَظَ ثُمَّ قَالَ:-

«اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا(قيل الاستيصاء قبول الوصية أى أوصيكم بهن خيرا فاقبلوا وصيتى فيهن. وقيل الاستيصاء بمعنى الإيصاء)

فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٍ(جمع عانية بمعنى الأسيرة)لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئًا غَيْرَ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ

(أى لا تملكون غير ذلك فى وقت إلا وقت إتيانهن بفاحشة مبينة أى ظاهرة فحشا و قبحا)بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ

فَإِنْ فَعَلْنَ :-1-فَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ 2-وَ اضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ(هو الشديد الشاق)

فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ(فى ترك النشوز)فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ لَكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ حَقًّا وَ لِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا

فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ فَلَا يُوَطِّئْنَ(صفة جمع النساء من الإيطاء قال الخطابى معناه أن لا يأذن لأحد من الرجال يدخل فيتحدث إليهن و كان الحديث من الرجال إلى النساء من عادات العرب لا يرون ذلك عيبا ولا يعدونه ريبة. فلما نزلت آية الحجاب وصارت النساء مقصورات نهى عن محادثتهن والقعود إليهن)فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ وَ لَا يَأْذَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ لِمَنْ تَكْرَهُونَ

(أى من تكرهون دخوله. سواء كرهتموه فى نفسه أم لا. قيل المختار منعهن عن إذن أحد فى الدخول والجلوس فى المنازل. سواء كان محرما أو امرأة إلا برضاه)

أَلَا وَ حَقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ وَ طَعَامِهِنَّ»

(فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ)فقد حصل لكم ما تحبون فاتركوا:-

1-معاتبتها على الأمور الماضية 2-و التنقيب عن العيوب التى يَضُرُ ذكرها و يَحْدُثُ بسببه الشر.

(إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا)له العلو المطلق بجميع الوجوه و الاعتبارات:-

1-علو الذات 2-و علو القدر 3-و علو القهر الكبير الذى لا أكبر منه و لا أجل و لا أعظم كبير الذات

و الصفات34

(وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا)بين الزوجين و المباعدة و المجانبة حتى يكون كل منهما فى شق

(فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ)

رجلين مكلفين مسلمين عدلين عاقلين يعرفان ما بين الزوجين و يعرفان الجمع و التفريق

و هذا مستفاد من لفظ « الحكم » لأنه لا يصلح حكما إلا من اتصف بتلك الصفات.

*فينظران ما ينقم كل منهما على صاحبه

*ثم يلزمان كلا منهما ما يجب

*فإن لم يستطع أحدهما ذلك قنَّعا الزوج الآخر بالرضا بما تيسر من:-الرزق و الخُلُق

و مهما أمكنهما الجمع و الإصلاح فلا يعدلا عنه.

*فإن وصلت الحال إلى أنه لا يمكن اجتماعهما و إصلاحهما إلا على:-وجه المعادة و المقاطعة و معصية الله

و رأيا أن التفريق بينهما أصلح فرَقا بينهما.

و لا يُشْتَرَطُ رضا الزوج كما يدل عليه أن الله سماهما حكمين و الحكم يحكم و لو لم يرض المحكوم عليه

و لهذا قال:-(إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ)

بسبب الرأى الميمون و الكلام الذى يجذب القلوب و يؤلف بين القرينين.

(إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا)عالمًا بجميع الظواهر و البواطن مطلعا على خفايا الأمور و أسرارها.

فمن علمه و خبره أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة و الشرائع الجميلة.

*قَالَ الْفُقَهَاءُ:-إِذَا وَقَعَ الشِّقَاقُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ أَسْكَنَهُمَا الْحَاكِمُ إِلَى:-

1- جَنْبِ ثِقَةٍ يَنْظُرُ فِي أَمْرِهِمَا وَ يَمْنَعُ الظَّالِمَ مِنْهُمَا مِنَ الظُّلْمِ

2-فَإِنْ تَفَاقَمَ أَمْرُهُمَا وَ طَالَتْ خُصُومَتُهُمَا:-بَعَثَ الْحَاكِمُ ثِقَةً مِنْ أَهْلِ الْمَرْأَةِ وَ ثِقَةً مِنْ قَوْمِ الرَّجُلِ لِيَجْتَمِعَا وَيَنْظُرَا فِي أَمْرِهِمَا

وَ يَفْعَلَا مَا فِيهِ الْمَصْلَحَةُ مِمَّا يَرَيَانِهِ مِنَ التَّفْرِيقِ أَوِ التَّوْفِيقِ و تَشَوف الشَّارِعُ إِلَى التَّوْفِيقِ

وَ لِهَذَا قَالَ: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾

*مسند الشافعى-أَخْبَرَنَا الثَّقَفِيُّ عَنْ أَيُّوبَ عَنِ ابْنِ سِيرِينَ عَنْ عَبِيدَةَ أَنَّهُ قَالَ فِي هَذِهِ الآيَةِ:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ [النساء: 35]

قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ وَ امْرَأَةٌ إِلَى عَلِيٍّ ﷺ وَ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِئَامٌ مِنَ النَّاسِ

فَأَمَرَهُمْ عَلِيٌّ ﷺ فَبَعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَ حَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا ثُمَّ قَالَ لِلْحَكَمَيْنِ:-

تَدْرِيَانِ مَا عَلَيْكُمَا إِنْ رَأَيْتُمَا أَنْ تَجْمَعَا وَ إِنْ رَأَيْتُمَا أَنْ تُفَرِّقَا قَالَ: قَالَتِ الْمَرْأَةُ:-

رَضِيتُ بِكِتَابِ اللَّهِ بِمَا عَلَيَّ فِيهِ وَلِي.وَ قَالَ الرَّجُلُ: أَمَّا الْفُرْقَةُ فَلا

فَقَالَ عَلِيٌّ ﷺ:- كَذَبْتَ وَ اللَّهِ حَتَّى تُقِرَّ بِمِثْلِ الَّذِى أَقَرَّتْ بِهِ.

*و مَذْهَبُ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ:-أَنَّ الْحَكَمَيْنِ إِلَيْهِمَا الْجَمْعُ وَ التَّفْرِقَةُ

وَ قَدِ اخْتَلَفَ الْأَئِمَّةُ فِي الْحُكْمَيْنِ:-هَلْ هُمَا مَنْصُوبَانِ مِنْ عِنْدِ الْحَاكِمِ فَيَحْكُمَانِ وَ إِنْ لَمْ يَرْضَ الزَّوْجَانِ أَوْ هُمَا وَكِيلَانِ مِنْ جِهَةِ الزَّوْجَيْنِ؟

عَلَى قَوْلَيْنِ: فَالْجُمْهُورُ عَلَى الْأَوَّلِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:-﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾فَسَمَّاهُمَا حَكَمَيْنِ

وَ مِنْ شَأْنِ الْحَكَمِ أَنْ يَحْكُمَ بِغَيْرِ رِضَا الْمَحْكُومِ عَلَيْهِ وَ هَذَا ظَاهِرُ الْآيَةِ﴿٣٥﴾

(وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا)

*يأمر تعالى عباده بعبادته وحده لا شريك له و هو الدخول تحت رق عبوديته و الانقياد لأوامره و نواهيه محبة و ذلا و إخلاصا له فى جميع العبادات الظاهرة و الباطنة.

*و ينهى عن الشرك به شيئا لا شركا أصغر و لا أكبر:–لا ملكا و لا نبيا و لا وليا و لا غيرهم من المخلوقين الذين لا يملكون لأنفسهم:–نفعا و لا ضرا و لا موتا و لا حياة و لا نشورا

بل الواجب المتعين إخلاص العبادة لمن له:–

1–الكمال المطلق من جميع الوجوه

2–و له التدبير الكامل الذى لا يشركه و لا يعينه عليه أحد.

*البخارى2856 - عَنْ مُعَاذٍ ﷺ قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ﷺعَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ

فَقَالَ: «يَا مُعَاذُ هَلْ تَدْرِى حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ وَ مَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟»قُلْتُ:- اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَعْلَمُ

قَالَ: «فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَ لاَيُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا
وَ حَقَّ العِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لاَ يُعَذِّبَ مَنْ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلاَ أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ؟
قَالَ: «لاَ تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا»

*ثم بعد ما أمر بعبادته و القيام بحقه أمر بالقيام بحقوق العباد الأقرب فالأقرب. فقال:–(وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا)

أى: أحسنوا إليهم بــ:–

1–القول الكريم 2–و الخطاب اللطيف 3–و الفعل الجميل بطاعة أمرهما و اجتناب نهيهما

4–و الإنفاق عليهما 5–و إكرام من له تعلق بهما 6–و صلة الرحم التى لا رحم لك إلا بهما.

*و للإحسان ضدان:–1–الإساءةُ 2–و عدمُ الإحسان. و كلاهما منهى عنه.

كقوله(وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ) لقمان: ١٤

(وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا) الإسراء: ٢٣

(وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ)أيضا إحسانا و يشمل ذلك جميع الأقارب قربوا أو بعدوا بأن يحسن إليهم بـ–

1–القول و الفعل

2–و أن لا يقطع برحمه بقوله أو فعله.

*ثم عطف على الاحسان اليهما الاحسان الى القربات من الرجال و النساء كما جاء فى الحديث:-

*البخارى 1466 -عَنْ زَيْنَبَ امْرَأَةِ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود قَالَتْ:-كُنْتُ فِي المَسْجِدِ فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺفَقَالَ:-
«تَصَدَّقْنَ وَ لَوْ مِنْ حُلِيِّكُنَّ»وَ كَانَتْ زَيْنَبُ تُنْفِقُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ وَ أَيْتَامٍ فِي حَجْرِهَا قَالَ:فَقَالَتْ لِعَبْدِ اللَّهِ:-
سَلْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺأَيَجْزِي عَنِّي أَنْ أُنْفِقَ عَلَيْكَ وَ عَلَى أَيْتَامٍ فِي حَجْرِي(رعايتها وحضانتها)مِنَ الصَّدَقَةِ؟
فَقَالَ: سَلِي أَنْتِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَانْطَلَقْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺفَوَجَدْتُ امْرَأَةً مِنَ الأَنْصَارِ عَلَى البَابِ حَاجَتُهَا مِثْلُ
حَاجَتِي فَمَرَّ عَلَيْنَا بِلاَلٌ فَقُلْنَا: سَلِ النَّبِيَّ ﷺأَيَجْزِي(أيكفى و يقبل)عَنِّي أَنْ أُنْفِقَ عَلَى زَوْجِي وَ أَيْتَامٍ لِي فِي حَجْرِي؟
وَ قُلْنَا:-لاَ تُخْبِرْ بِنَا فَدَخَلَ فَسَأَلَهُ فَقَالَ: «مَنْ هُمَا؟» قَالَ: زَيْنَبُ قَالَ: «أَيُّ الزَّيَانِبِ؟»
قَالَ: امْرَأَةُ عَبْدِ اللَّهِ(هي زوجة أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصارى رضى الله عنهما)
قَالَ: «نَعَمْ لَهَا أَجْرَانِ أَجْرُ القَرَابَةِ وَ أَجْرُ الصَّدَقَةِ(الزكاة)»

(وَٱلۡيَتَٰمَىٰ)الذين فقدوا آباءهم و هم صغار فلهم حق على المسلمين سواء كانوا أقارب أو غيرهم بــ:–

1–كفالتهم 2–وبرهم 3–وجبر خواطرهم 4–و تأديبهم

5–و تربيتهم أحسن تربية فى مصالح دينهم و دنياهم

(وَٱلۡمَسَٰكِينِ)

و هم الذين أسكنتهم الحاجة و الفقر فلم يحصلوا على كفايتهم و لا كفاية من يمونون

فأمر الله تعالى بالإحسان إليهم بــ:–

1-سد خلتهم 2-و بدفع فاقتهم 3-و الحض على ذلك و القيام بما يمكن منه.

(وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ)الجار القريب الذى له حقان حق الجوار و حق القرابة فله على جاره حق و إحسان راجع إلى العرف.

(وَ)كذلك (وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ)الذى ليس له قرابة. و كلما كان الجار أقرب بابًا كان آكد حقًّا

فينبغي للجار أن يتعاهد جاره بـــ:-

1-الهدية 2-و الصدقة 3-و الدعوة 4-و اللطافة بالأقوال و الأفعال

5-و عدم أذيته بقول أو فعل.

*البخارى6014 عَنْ عَائِشَةَ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهَا عَنِ النَّبِىِّ ﷺقَالَ:-
«مَا زَالَ يُوصِينِى جِبْرِيلُ بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ»

(توقعت أن يأتيني بأمر من الله تعالى يجعل الجار وارثا من جاره كأحد أقربائه وذلك من كثرة ما شدد في حفظ حقوقه والإحسان إليه)

*الترمذى 1944 عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ:-قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-
«خَيْرُ الأَصْحَابِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ وَ خَيْرُ الجِيرَانِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ»

(وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ) قيل: الرفيق فى السفر و قيل: الزوجة و قيل الصاحب مطلقا و لعله أولى فإنه يشمل الصاحب فى الحضر و السفر و يشمل الزوجة.

فعلى الصاحب لصاحبه حق زائد على مجرد إسلامه من :-

1-مساعدته على أمور دينه و دنياه 2-و النصح له

3-و الوفاء معه فى اليسر و العسر و المنشط و المكره

4-و أن يحب له ما يحب لنفسه

5-و يكره له ما يكره لنفسه و كلما زادت الصحبة تأكد الحق و زاد.

(وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ)و هو: الغريب الذى احتاج فى بلد الغربة أو لم يحتج

فله حق على المسلمين لشدة حاجته و كونه فى غير وطنه بــــ:-

1-تبليغه إلى مقصوده أو بعض مقصوده 2-و بإكرامه 3-و تأنيسه .

(وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ)

*ابن ماجه 2697 - عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ:-
كَانَتْ عَامَّةُ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ وَ هُوَ يُغَرْغِرُ(الغرغرة تردد الروح في الحلق)بِنَفْسِهِ «الصَّلاَةَ(بالنصب أى الزموها)وَ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ(أى حق المال يريد الزكاة. و راعوا ما ملكت أيمانكم. أعنى العبيد و الإماء)»

*البخارى 5460 - عن أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِىِّ ﷺقَالَ:-«إِذَا أَتَى أَحَدَكُمْ خَادِمُهُ بِطَعَامِهِ فَإِنْ لَمْ يُجْلِسْهُ مَعَهُ فَلْيُنَاوِلْهُ أُكْلَةً أَوْ أُكْلَتَيْنِ أَوْ لُقْمَةً أَوْ لُقْمَتَيْنِ فَإِنَّهُ وَلِىَ(تولى)حَرَّهُ(حر الطعام و رائحته أثناء طبخه)وَ عِلاَجَهُ»

*البخارى30 -عَنِ المَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ قَالَ:-لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ(موضع قريب من المدينة)وَ عَلَيْهِ حُلَّةٌ(ثوبان إزار ورداء)

وَ عَلَى غُلَامِهِ(عبده ومملوكه)حُلَّةٌ فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ(عن سبب إلباسه عبده مثل ما يلبس لأنه خلاف المعهود)
فَقَالَ:-إِنِّي سَابَبْتُ(شاتمت)رَجُلًا(هو بلال الحبشى ﷺ)فَعَيَّرْتُهُ(نسبته إلى العار)بِأُمِّهِ(بسبب أمه و كانت سوداء فقال له يا ابن السوداء)
فَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ:-«يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ(خصلة من خصال الجاهلية وهي التفاخر بالآباء)
إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ(الذين يخولون أموركم -أى يصلحونها-من العبيد والخدم هم إخوانكم في الدين أو الآدمية)جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ
(فى رعايتكم وتحت سلطانكم)فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ وَ لْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ
وَ لَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ(يعجزون عن القيام به)فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ»

أى: من الآدميين و البهائم بالقيام بـــ:–

1–كفايتهم 2–وعدم تحميلهم ما يشق عليهم 3–و إعانتهم على ما يتحملون 4–و تأديبهم لما فيه مصلحتهم

فمن قام بهذه المأمورات فهو :–

1–الخاضع لربه 2–المتواضع لعباد الله

3–المنقاد لأمر الله و شرعه الذى يستحق الثواب الجزيل و الثناء الجميل

و من لم يقم بذلك فإنه :–

1–عبد معرض عن ربه 2–غير منقاد لأوامره 3–و لا متواضع للخلق

4–بل هو متكبر على عباد الله

5–معجب بنفسه فخور بقوله

و لهذا قال:(إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا)معجبا بنفسه متكبرًا على الخلق

(فَخُورًا)يثنى على نفسه و يمدحها على وجه الفخر و البطر على عباد الله فهؤلاء ما بهم من الاختيال و الفخر يمنعهم من القيام بالحقوق

*يَعُدُ مَا أُعْطِىَ وَ هُوَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ. يَعْنِى:- يَفْخَرُ عَلَى النَّاسِ بِمَا أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنْ نِعَمِهِ وَ هُوَ قَلِيلُ الشُّكْرِ لِلَّهِ عَلَى ذَلِكَ36

و لهذا ذمهم بقوله:–(ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ)يمنعون ما عليهم من الحقوق الواجبة.

ذم البخلاء و المرائين و عدل الله و وعيده 37-42

(وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ)بأقوالهم و أفعالهم

*الأدب المفرد :-296-عن جابر ﷺ قال: قَالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ:-(مَن سَيدُكُم يَا بَنى سَلَمَةَ؟
قُلنا: جَدُ بْنُ قيسٍ عَلى أنَّا نُبَخِّلَهُ. قَالَ: (وَ أَىُّ دَاءٍ أَدوَى مِنَ البُخلِ بَلْ سَيِدُكُم: عَمرو بن الجَمُوح)
و كانَ عَمرو عَلى أَصنَامِهم فِي الجَاهِلية و كانَ يُولِمُ عَن رسولِ اللَّهِ ﷺإِذا تَزَوجَّ.
*مسلم(2578)عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:-
«اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ(قال القاضى قيل هو على ظاهره فيكون ظلمات على صاحبه لا يهتدى يوم القيامة سبيلا حين يسعى نور المؤمنين بين أيديهم وبأيمانهم ويحتمل أن الظلمات هنا الشدائد وبه فسروا قوله تعالى قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر أي شدائدهما ويحتمل أنها عبارة عن الأنكال والعقوبات)وَ اتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ(قال القاضى يحتمل أن هذا الهلاك هو الهلاك الذى أخبر عنهم به فى الدنيا بأنهم سفكوا

دماءهم ويحتمل أنه هلاك الآخرة وهذا الثانى أظهر ويحتمل أنه أهلكهم فى الدنيا والآخرة قال جماعة الشح أشد البخل وأبلغ فى المنع من البخل وقيل هو البخل مع الحرص وقيل البخل في أفراد الأمور والشح عام وقيل الشح الحرص على ما ليس عنده والبخل بما عنده])

حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَ اسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ»

(وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ)من العلم

الذى يهتدى به الضالون و يسترشد به الجاهلون فيكتمونه عنهم و يظهرون لهم من الباطل ما يحول بينهم و بين الحق

فجمعوا بين:-

1-البخل بالمال و البخل بالعلم و بين

2-السعى فى خسارة أنفسهم و خسارة غيرهم و هذه هى صفات الكافرين

*فالْبَخِيلُ جَحُود لِنِعْمَة اللَّه عَلَيْهِ1-لَا تَظْهَرُ عَلَيْهِ وَ لَا تَبِينُ لَا فِي أَكْلِهِ وَ لَا فِي مَلْبَسِهِ2-وَ لَا فِي إِعْطَائِهِ وَ بَذْلِهِ

كَمَا قَالَ تَعَالَى: {إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ 6 وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ}أَيْ: بِحَالِهِ وَ شَمَائِلِهِ

{وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ}[الْعَادِيَاتِ: 8]وَ قَالَ هَاهُنَا: {وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ}

وَ لِهَذَا توعَّدهم بِقَوْلِه: (وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا)

وَ الْكُفْرُ هُوَ السَّتْرُ وَ التَّغْطِيَةُ فَالْبَخِيلُ يَسْتُرُ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَ يَكْتُمُهَا وَ يَجْحَدُهَا فَهُوَ كَافِرٌ لِنِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ.

*الترمذى 2819-عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ:-قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

«إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ»

فلهذا قال تعالى: (وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا)كمـــا:-

1-تكبروا على عباد الله2-و منعوا حقوقه

3-و تسببوا فى منع غيرهم من البخل و عدم الاهتداء

←أهانهم بالعذاب الأليم و الخزى الدائم. فعياذًا بك اللهم من كل سوء.

*وَ قَدْ حَمَلَ بعضُ السَّلَفِ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى بُخْلِ الْيَهُودِ بِإِظْهَارِ الْعِلْمِ الَّذِى عِنْدَهُمْ مِنْ صِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَ كِتْمَانِهِمْ ذَلِكَ و لِهَذَا قَالَ:-{وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا}

وَ لَا شَكَّ أَنَّ الْآيَةَ مُحْتَمِلَةٌ لِذَلِكَ وَ الظَّاهِرُ أَنَّ السِّيَاقَ فِي الْبُخْلِ بِالْمَالِ وَ إِنْ كَانَ الْبُخْلُ بِالْعِلْمِ دَاخِلًا فِي ذَلِكَ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى فَإِنَّ سِيَاقَ الْكَلَامِ فِي الْإِنْفَاقِ عَلَى الْأَقَارِبِ وَ الضُّعَفَاءِ

وَكَذَا الْآيَةُ الَّتِى بَعْدَهَا وَ هِىَ قَوْلُهُ:{والَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ}فَذَكر الْمُمْسِكِينَ الْمَذْمُومِينَ وَ هُمُ الْبُخَلَاءُ

*ثُمَّ ذَكَرَ الْبَاذِلِينَ الْمُرَائِينَ الَّذِي يَقْصِدُونَ بِإِعْطَائِهِمُ السُّمْعَةَ وَ أَنْ يُمدَحوا بِالْكَرَمِ وَ لَا يُرِيدُونَ بِذَلِكَ وَجهَ اللَّهِ

وَ فِي حديث الَّذِى فِيهِ الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ هُمْ أَوَّلُ مَنْ تُسَجَّرُ بِهِمُ النَّارُ وَ هُمْ:-

الْعَالِمُ وَ الْغَازِى وَ الْمُنْفِقُ

وَ الْمُرَاءُونَ بِأَعْمَالِهِمْ يَقُولُ صَاحِبُ الْمَالِ:-مَا تَرَكْتُ مِنْ شَيْءٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهِ إِلَّا أَنْفَقْتُ فِي سَبِيلِكَ.

فَيَقُولُ اللَّهُ: كَذَبْتَ؛ إِنَّمَا أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ.

أَيْ:-فَقَدْ أَخَذْتَ جَزَاءَكَ فِي الدُّنْيَا وَهُوَ الَّذِى أَرَدْتَ بِفِعْلِكَ37

وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ
قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾
فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾
يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ
حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ
فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾
أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾

*مسلم (214) عَنْ عَائِشَةَ قُلْتُ: -يَا رَسُولَ اللهِ ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ وَ يُطْعِمُ الْمِسْكِينَ فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟قَالَ:"لَا يَنْفَعُهُ إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ "

*ثم أخبر عن النفقة الصادرة عن رياء و سمعة و عدم إيمان به فقال:-

(وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ)ليروهم و يمدحوهم و يعظموهم

(وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ)ليس إنفاقهم صادرا عن إخلاص و إيمان بالله و رجاء ثوابه.

أي: فهذا من خطوات الشيطان و أعماله التي يدعو حزبه إليها ليكونوا من أصحاب السعير.

و صدرت منهم بسبب مقارنته لهم و أزهم إليها

فلهذا قال:-(وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا)

أي: بئس المقارن و الصاحب الذى يريد:-1- إهلاك من قارنه2-و يسعى فيه أشد السعي.

*فكما أن من بخل بما آتاه الله و كتم ما مَنَّ به الله عليه عاص آثم مخالف لربه فكذلك من أنفق و تعبد لغير الله فإنه آثم عاص لربه مستوجب للعقوبة لأن الله إنما أمر بطاعته و امتثال أمره على وجه الإخلاص

كقوله تعالى:(وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)

قال الشاعر:-عَنِ المَرْء لَا تَسْأل وسَلْ عَنْ قَرِينه ... فكلُّ قَرِينٍ بِالْمَقَارَنِ يَقْتَدى

فهذا العمل المقبول الذى يستحق صاحبه المدح و الثواب 38

فلهذا حث تعالى عليه بقوله:-(وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ)

و أى شيء عليهم و أى حرج و مشقة تلحقهم لو حصل منهم الإيمان بالله الذى هو الإخلاص

(وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ)من أموالهم التى رزقهم الله و أنعم بها عليهم فجمعوا بين الإخلاص و الإنفاق

*و لمَّا كان الإخلاص سرًّا بين العبد و بين ربه لا يطلع عليه إلا الله أخبر تعالى بعلمه بجميع الأحوال فقال:–

(وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا) 39

*يخبر تعالى عن كمال عدله و فضله و تنزهه عما يضاد ذلك من الظلم القليل و الكثير فقال:–

(إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ)

(الذرة:هى النملة الصغيرة و قيل ذرة التراب و ليس هى الذرة كما فى التصور الفيزيائى و الكيميائى

فهذا اصطلاح حادث للذرة لم يكن مقصود القرآن و إن صح المعنى)

أى:ينقصها من حسنات عبده أو يزيدها فى سيئاته لقوله:–

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ*وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)

كقوله (وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ) الأنبياء: ٤٧

*مسلم 183-فيقول الله(ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ:-رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا خَيْرًا "وَ كَانَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ يَقُولُ:-إِنْ لَمْ تُصَدِّقُونِي بِهَذَا الْحَدِيثِ فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ:-{إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا}[النساء: 40]

(وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا)أى إلى عشرة أمثالها إلى أكثر من ذلك بحسب:–

1–حالها 2–و نفعها 3–و حال صاحبها:–1_إخلاصا 2_و محبة 3_و كمالا

(وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا)

أى زيادة على ثواب العمل بنفسه من :–1–التوفيق لأعمال أخر 2–و إعطاء البر الكثير و الخير الغزير 40

ثم قال تعالى (فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا)

*البخارى4583 - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ - قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ:«اقْرَأْ عَلَيَّ» قُلْتُ: آقْرَأُ عَلَيْكَ وَ عَلَيْكَ أُنْزِلَ؟ قَالَ: «فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي»فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى بَلَغْتُ:- {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا}[النساء: 41] قَالَ: «أَمْسِكْ» فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ

*أى كيف تكون تلك الأحوال و كيف يكون ذلك الحكم العظيم الذي جمع أن من حكم به:–

كاملُ العلم كاملُ العدل كامل الحكمة بشهادة أزكى الخلق و هم الرسل على أممهم مع إقرار المحكوم عليه؟

« فهذا – و الله– الحكم الذى هو أعم الأحكام و أعدلها و أعظمها.»

و هناك يبقى المحكوم عليهم مقرين له لكمال الفضل و العدل و الحمد و الثناء

و هناك يسعد أقوام بالفوز و الفلاح و العز و النجاح و يشقى أقوام بالخزى و الفضيحة و العذاب المهين41

◄ أقرأ عليك وعليك أُنزِل؟!

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال لي النبي ﷺ «اقرأ علي» قلت: يا رسول الله، أقرأ عليك وعليك أُنزِلَ؟ قال: نعم، إني أحب أن أسمعه من غيري، فقرأتُ سورةَ النساء، حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾[1] النساء: ٤١، قال: حسبك الآن؛ فإذا عيناه تَذْرِفان[2] رواه البخاري (٤٥٨٢) ومسلم برقم (٨٠٠)

وهذا الحديث عن أشرف الخلق ﷺ يعطينا الصورة الأكمل والأمثل للتأثر بالقرآن، وهي حالة من التأثر تشمل القلب والفكر والجوارح بحيث لا يبقى مجال للنفس أن تنشغل بشيء آخر، وفي نفس الوقت يبقى معها الترابط النفسي حاضرًا ولا يخرج بصاحبها عن المألوف.

و لهذا قال(يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ)أى جمعوا بين الكفر بالله و برسوله و معصيةِ الرسول (لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ)

أي تبتلعهم و يكونون ترابا و عدمًا كقوله(إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا)النبأ: ٤٠

(وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا)أى بل يقرون له بما عملوا و تشهد عليهم ألسنتهم و أيديهم و أرجلهم بما كانوا يعملون يومئذ يوفيهم الله جزاءهم الحق و يعلمون أن الله هو الحق المبين.

فأما ما ورد من أن الكفار يكتمون كفرهم و جحودهم فإن ذلك يكون فى بعض مواضع القيامة حين يظنون أن جحودهم ينفعهم من عذاب الله فإذا عرفوا الحقائق و شهدت عليهم جوارحهم حينئذ ينجلى الأمر و لا يبقى للكتمان موضع و لا نفع و لا فائدة.

*البخارى فى-تفسير السجدة وَ قَالَ الْمِنْهَالُ: عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِابْنِ عَبَّاسٍ:-

إِنِّي أَجِدُ فِي الْقُرْآنِ أَشْيَاءَ تَخْتَلِفُ عَلَيَّ قَالَ:-{فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ} [المؤمنون: 101]

{وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ} [الصافات: 27] {وَلاَ يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا} [النساء: 42]

{وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ}[الأنعام: 23]فَقَدْ كَتَمُوا فِي هَذِهِ الآيَةِ؟

وَ قَالَ: {أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا}[النازعات: 27] إِلَى قَوْلِهِ:{دَحَاهَا} [النازعات: 30] فَذَكَرَ خَلْقَ السَّمَاءِ قَبْلَ خَلْقِ الأَرْضِ

ثُمَّ قَالَ: {أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ} [فصلت: 9] إِلَى قَوْلِهِ:{طَائِعِينَ} [فصلت: 11]

فَذَكَرَ فِي هَذِهِ خَلْقَ الأَرْضِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاءِ؟

وَ قَالَ:{وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء: 96] {عَزِيزًا حَكِيمًا} [النساء: 56] {سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء: 58]فَكَأَنَّهُ كَانَ ثُمَّ مَضَى؟

فَقَالَ: {فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ} [المؤمنون: 101]: فِي النَّفْخَةِ الأُولَى

ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ: {فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ} {فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ}

ثُمَّ فِي النَّفْخَةِ الآخِرَةِ {أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ} [الصافات: 27]

وَ أَمَّا قَوْلُهُ: {مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [الأنعام: 23] {وَلاَ يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا} [النساء: 42]

فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لِأَهْلِ الإِخْلاَصِ ذُنُوبَهُمْ وَ قَالَ المُشْرِكُونَ: تَعَالَوْا نَقُولُ لَمْ نَكُنْ مُشْرِكِينَ

فَخُتِمَ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ فَتَنْطِقُ أَيْدِيهِمْ فَعِنْدَ ذَلِكَ عُرِفَ أَنَّ اللَّهَ لاَ يُكْتَمُ حَدِيثًا

وَ عِنْدَهُ: {يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا} [البقرة: 105] الآيَةَ42

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ)ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يقربوا الصلاة و هم سكارى

(حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ)حتى يعلموا ما يقولون و هذا شامل لقربان مواضع الصلاة كالمسجد

فإنه لا يمكّن السكران من دخوله. و شامل لنفس الصلاة

من شروط الصلاة 43

فإنه لا يجوز للسكران صلاة و لا عبادة لــ:1–اختلاط عقله 2–و عدم علمه بما يقول

*و لهذا حدد تعالى ذلك و غياه إلى وجود العلم بما يقول السكران.

و هذه الآية الكريمة منسوخة بتحريم الخمر مطلقا فإن الخمر – فى أول الأمر– كان غير محرم

ثم إن الله تعالى عرض لعباده بتحريمه بقوله:–

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا)

*ثم إنه تعالى نهاهم عن الخمر عند حضور الصلاة كما في هذه الآية

*ثم إنه تعالى حرمه على الإطلاق فى جميع الأوقات فى قوله:–

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ)

*و مع هذا فإنه يشتد تحريمه وقت حضور الصلاة لــ:–

تضمنه هذه المفسدة العظيمة بعد حصول مقصود الصلاة الذى هو روحها و لبها و هو:–

الخشوع و حضور القلب

*فإن الخمر يُسكر القلب و يصد عن ذكر الله و عن الصلاة

*و يؤخذ من المعنى منع الدخول فى الصلاة فى حال النعاس المفرط الذى لا يشعر صاحبه بما يقول و يفعل

*بل لعل فيه إشارة إلى أنه ينبغى لمن أراد الصلاة أن:–يقطع عنه كل شاغل يشغل فكره كــ:–

1–مدافعة الأخبثين 2–و التوق لطعام و نحوه كما ورد فى ذلك الحديث الصحيح.

*البخارى212-عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

«إِذَا نَعَسَ(هجم عليه النوم)أَحَدُكُمْ وَ هُوَ يُصَلِّى فَلْيَرْقُدْ(فلينم)حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ النَّوْمُ

فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا صَلَّى وَ هُوَ نَاعِسٌ لاَ يَدْرِى لَعَلَّهُ يَسْتَغْفِرُ(يريد أن يستغفر)فَيَسُبُّ نَفْسَهُ(يدعو عليها)»

ثم قال:(وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ)أى: لا تقربوا الصلاة حالة كون أحدكم جنبا إلا فى هذه الحال و هو عابر

السبيل أى:–تمرون فى المسجد و لا تمكثون فيه

(حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ)فإذا اغتسلتم فهو غاية المنع من قربان الصلاة للجنب فيحل للجنب المرور فى المسجد فقط.

*وَ مِنْ هَذِهِ الآيَةِ احْتَجَّ كَثِيرٌ مِنَ الأَئِمَّةِ عَلَى أَنَّهُ :-

1-يَحْرُمُ عَلَى الْجُنُبِ اللُّبْثُ فِى الْمَسْجِدِ

2-وَ يَجُوزُ لَهُ الْمُرُورُ و كَذَا الْحَائِضُ وَالنُّفَسَاءُ أَيْضًا فِي مَعْنَاهُ

*البخارى298 -عن أُمَّ سَلَمَةَ قَالَتْ:-بَيْنَا أَنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ مُضْطَجِعَةٌ فِي خَمِيصَةٍ(ثوب مربع من خز أو صوف)

إِذْ حِضْتُ فَانْسَلَلْتُ(ذهبت فى خفية)فَأَخَذْتُ ثِيَابَ حِيضَتِي(الثياب التى أعددتها لألبسها حالة الحيض)

قَالَ:«أَنُفِسْتِ» قُلْتُ: نَعَمْ فَدَعَانِي فَاضْطَجَعْتُ مَعَهُ فِي الخَمِيلَةِ(هى الخميصة أو هى ثوب له خمل وهدب)

(وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ)

فأباح التيمم للمريض مطلقًا مع وجود الماء و عدمه و العلة المرض الذى يشق معه استعمال الماء

(أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ)و كذلك السفر فإنه مظنة فقد الماء فإذا فقده المسافر أو وجد ما يتعلق بحاجته من شرب

و نحوه ←جاز له التيمم.

(أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ)(الغائط:-هنا هو مكان الحاجة و ليس الحاجة المعروفة نفسها

و قد كنى الله عن الحاجة بمكانها و ليس مجرد الاتيان موجب للوضوء و إلا فإتيان فمجرد إتيان الحاجة ليس موجبا للوضوء)

(أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ)

*و كذلك إذا أحدث الإنسان ببول أو غائط أو ملامسة النساء فإنه يباح له التيمم إذا لم يجد الماء حضرًا

و سفرًا كما يدل على ذلك عموم الآية.

*و الحاصل: أن الله تعالى أباح التيمم فى حالتين:-

1-حال عدم الماء و هذا مطلقا في الحضر و السفر 2-و حال المشقة باستعماله بمرض و نحوه.

*و اختلف المفسرون في معنى قوله:-(أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ) هل المراد بذلك: الجماع

فتكون الآية نصا في جواز التيمم للجنب كما تكاثرت بذلك الأحاديث الصحيحة؟

أو المراد بذلك مجرد اللمس باليد و يقيد ذلك بما إذا كان مظنة خروج المذى

و هو المس الذى يكون لشهوة فتكون الآية دالة على نقض الوضوء بذلك؟

*و استدل الفقهاء بقوله:-(فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً)بوجوب طلب الماء عند دخول الوقت قالوا:-

لأنه لا يقال: « لم يجد » لمن لم يطلب بل لا يكون ذلك إلا بعد الطلب

*و استدل بذلك أيضا على أن الماء المتغير بشيء من الطاهرات يجوز بل يتعين التطهر به لدخوله فى قوله:-

(فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً) و هذا ماء.

و نوزع فى ذلك أنه ماء غير مطلق و فى ذلك نظر.

*و فى هذه الآية الكريمة:-

مشروعية هذا الحكم العظيم الذى امتن به الله على هذه الأمة و هو مشروعية التيمم

و قد أجمع على ذلك العلماء و لله الحمد

*و أن التيمم يكون بالصعيد الطيب و هو :–كل ما تصاعد على وجه الأرض سواء كان له غبار أم لا

و يحتمل أن يختص ذلك بذى الغبار لأن الله قال:–(صَعِيدًا طَيِّبًا)

و ما لا غبار له لا يمسح به.

(فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ)هذا محل المسح فى التيمم:–

الوجه جميعه و اليدان إلى الكوعين كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة

*يستحب أن يكون ذلك بضربة واحدة كما دل على ذلك حديث عمار و فيه أن تيمم الجنب كتيمم غيره بالوجه و اليدين.

(فائدة) اعلم أن قواعد الطب تدور على ثلاث قواعد: –

1–حفظ الصحة عن المؤذيات 2–و الاستفراغ منها 3–و الحمية عنها.

و قد نبه تعالى عليها في كتابه العزيز.

*أما حفظ الصحة و الحمية عن المؤذى فقد:–

1–أمر بالأكل و الشرب و عدم الإسراف فى ذلك 2–و أباح للمسافر و المريض الفطر حفظا لصحتهما باستعمال ما يصلح البدن على وجه العدل و حماية للمريض عما يضره.

*و أما استفراغ المؤذى :–

فقد أباح تعالى للمحْرِم المتأذى برأسه أن يحلقه لإزالة الأبخرة المحتقنة فيه

ففيه تنبيه على استفراغ ما هو أولى منها من :–

البول و الغائط و القيء و المنى و الدم و غير ذلك نبه على ذلك ابن القيم رحمه الله تعالى.

*و في الآية وجوب تعميم مسح الوجه و اليدين و أنه يجوز التيمم و لو لم يضق الوقت

و أنه لا يخاطب بطلب الماء إلا بعد وجود سبب الوجوب والله أعلم.

ثم ختم الآية بقوله:–(إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا)أي:كثير العفو و المغفرة لعباده المؤمنين بتيسير ما أمرهم به و تسهيله غاية التسهيل بحيث لا يشق على العبد امتثاله فيحرج بذلك.

*و من عفوه و مغفـرته أن:–

1–رَحِمَ هذه الأمة بشرع طهارة التراب بدل الماء عند تعذر استعماله.

2–و من عفوه و مغفرته أن فتح للمذنبين باب التوبة و الإنابة و دعاهم إليه و وعدهم بمغفرة ذنوبهم.

3–و من عفوه و مغفرته أن المؤمن لو أتاه بقراب الأرض خطايا ثم لقيه لا يشرك به شيئا لأتاه بقرابها مغفرة.

*البخارى344 - عَنْ عِمْرَانَ بن حصين قَالَ:-كُنَّا فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى اسْتَيْقَظَ بِصَوْتِهِ النَّبِيُّ ﷺ.......
فَارْتَحَلَ فَسَارَ غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ نَزَلَ فَدَعَا بِالوَضُوءِ فَتَوَضَّأَ وَ نُودِيَ بِالصَّلَاةِ فَصَلَّى بِالنَّاسِ
فَلَمَّا انْفَتَلَ مِنْ صَلَاتِهِ إِذَا هُوَ بِرَجُلٍ مُعْتَزِلٍ لَمْ يُصَلِّ مَعَ القَوْمِ قَالَ:-

«مَا مَنَعَكَ يَا فُلَانُ أَنْ تُصَلِّيَ مَعَ القَوْمِ؟» قَالَ: أَصَابَتْنِي جَنَابَةٌ وَ لاَ مَاءَ قَالَ: «عَلَيْكَ بِالصَّعِيدِ فَإِنَّهُ يَكْفِيكَ»
ثُمَّ سَارَ النَّبِيُّ ﷺ فَاشْتَكَى إِلَيْهِ النَّاسُ مِنَ العَطَشِ

*مسلم (522) عَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ:-

1-جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ 2-وَ جُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا
3-وَ جُعِلَتْ تُرْبَتُهَا لَنَا طَهُورًا إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ "

*البخارى338 -عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبْزَى قَالَ:-جَاءَ رَجُلٌ إِلَى عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ فَقَالَ:-
إِنِّي أَجْنَبْتُ فَلَمْ أُصِبِ المَاءَ فَقَالَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ لِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ:-
أَمَا تَذْكُرُ أَنَّا كُنَّا فِي سَفَرٍ أَنَا وَ أَنْتَ فَأَمَّا أَنْتَ فَلَمْ تُصَلِّ وَ أَمَّا أَنَا فَتَمَعَّكْتُ فَصَلَّيْتُ فَذَكَرْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ
فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:-إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ هَكَذَا»
فَضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ بِكَفَّيْهِ الأَرْضَ وَ نَفَخَ فِيهِمَا ثُمَّ مَسَحَ بِهِمَا وَجْهَهُ وَ كَفَّيْهِ

*البخارى347 - عَنْ شَقِيقٍ قَالَ:-كُنْتُ جَالِسًا مَعَ عَبْدِ اللَّهِ وَ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ
فَقَالَ لَهُ أَبُو مُوسَى: لَوْ أَنَّ رَجُلًا أَجْنَبَ فَلَمْ يَجِدِ المَاءَ شَهْرًا أَمَا كَانَ يَتَيَمَّمُ وَ يُصَلِّي فَكَيْفَ تَصْنَعُونَ بِهَذِهِ الآيَةِ
فِي سُورَةِ المَائِدَةِ:-{فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا} [النساء: 43]
فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: لَوْ رُخِّصَ لَهُمْ فِي هَذَا لَأَوْشَكُوا إِذَا بَرَدَ عَلَيْهِمُ المَاءُ أَنْ يَتَيَمَّمُوا الصَّعِيدَ. قُلْتُ:-
وَ إِنَّمَا كَرِهْتُمْ هَذَا لِذَا؟ قَالَ: نَعَمْ فَقَالَ أَبُو مُوسَى:-أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ عَمَّارٍ لِعُمَرَ:-
بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَاجَةٍ فَأَجْنَبْتُ فَلَمْ أَجِدِ المَاءَ فَتَمَرَّغْتُ(تقلبت) فِي الصَّعِيدِ كَمَا تَمَرَّغُ الدَّابَّةُ
فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ:-«إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَصْنَعَ هَكَذَا فَضَرَبَ بِكَفِّهِ ضَرْبَةً عَلَى الأَرْضِ
ثُمَّ نَفَضَهَا(هزها أو نفخ فيها تخفيفا للتراب)ثُمَّ مَسَحَ بِهِمَا ظَهْرَ كَفِّهِ بِشِمَالِهِ أَوْ ظَهْرَ شِمَالِهِ بِكَفِّهِ ثُمَّ مَسَحَ بِهِمَا وَجْهَهُ»
(الظاهر أن المراد ب - " ثم " هنا الجمع وليس الترتيب لما دلت عليه الروايات الأخرى)
فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: أَفَلَمْ تَرَ عُمَرَ لَمْ يَقْنَعْ بِقَوْلِ عَمَّارٍ؟(ووجه عدم اقتناعه أنه كان معه في تلك الحادثة ولم يتذكر أصلا)

*البخارى 335 -عن جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:-"أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: -

1-نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ (هو الخوف يقذف في قلوب أعدائي)مَسِيرَةَ شَهْرٍ(أي بيني وبينه مسيرة شهر)
2-وَ جُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَ طَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ
3-وَ أُحِلَّتْ لِي المَغَانِمُ (جمع مغنم و هو الغنيمة وهو كل ما يحصل عليه المسلمون من الكفار قهرا)وَ لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي
4-وَ أُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ
5-وَ كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَ بُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً

ذكر سبب نزول مشروعية التيمم:

*البخارى 334 - عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ:-
خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالْبَيْدَاءِ(موضعان بين مكة والمدينة وقيل البيداء أدنى إلى مكة من ذى الحليفة)
أَوْ بِذَاتِ الجَيْشِ انْقَطَعَ عِقْدٌ(كل ما يعقد ويعلق في العنق) لِي فَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى التِمَاسِهِ(طلبه والبحث عنه)
وَ أَقَامَ النَّاسُ مَعَهُ وَ لَيْسُوا عَلَى مَاءٍ فَأَتَى النَّاسُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ
فَقَالُوا: أَ لاَتَرَى مَا صَنَعَتْ عَائِشَةُ؟
أَقَامَتْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَ النَّاسِ وَ لَيْسُوا عَلَى مَاءٍ(ليس في المكان الذى أقاموا فيه ماء)
وَ لَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ وَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاضِعٌ رَأْسَهُ عَلَى فَخِذِي قَدْ نَامَ

فَقَالَ: حَبَسْتِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺوَ النَّاسَ وَ لَيْسُوا عَلَى مَاءٍ وَ لَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ فَقَالَتْ عَائِشَةُ:-
فَعَاتَبَنِى أَبُو بَكْرٍ وَ قَالَ: مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ وَ جَعَلَ يَطْعُنُنِي(يضربني برؤوس أصابعه)بِيَدِهِ فِي خَاصِرَتِي
فَلاَ يَمْنَعُنِي مِنَ التَّحَرُّكِ إِلَّا مَكَانُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺعَلَى فَخِذِى
«فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺحِينَ أَصْبَحَ عَلَى غَيْرِ مَاءٍ فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ التَّيَمُّمِ فَتَيَمَّمُوا»
فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ الحُضَيْرِ: مَا هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ(ليس هذا أول خير يكون بسببكم والبركة كثرة الخير) يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ.قَالَتْ:-
فَبَعَثْنَا البَعِيرَ الَّذِى كُنْتُ عَلَيْهِ فَأَصَبْنَا العِقْدَ تَحْتَهُ43

من قبائح اليهود و الثواب و العقاب 44-57

(أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ)هذا ذم لمن(أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ)

و فى ضمنه:-

1-تحذير عباده عن الاغترار بهم 2-و الوقوع فى أشراكهم

فأخبر أنهم في أنفسهم (يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ)يحبونها محبة عظيمة و يؤثرونها إيثار من يبذل المال الكثير فى طلب ما يحبه.

فيؤثرون :-الضلال على الهدى و الكفر على الإيمان و الشقاء على السعادة

و مع هذا (وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ)44

وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ
وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ
وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ
فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ
وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ﴿٤٧﴾
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾
أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾
ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ
يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾

(وَٱللَّهُۚ)سبحانه و تعالى(أَعۡلَمُ)منكم-أيها المؤمنون-(بِأَعۡدَآئِكُمۡ)هؤلاء اليهود لكم

(وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا)يتولاكم

(وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا)ينصركم على أعدائكم45

(مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ)تبديل كلام الله

جحدوا لذلك الحق و أما حالهم في العمل و الانقياد :-(وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا)قولك

(وَعَصَيۡنَا)أمرك و هذا غاية الكفر و العناد و الشرود عن الانقياد

و كذلك يخاطبون الرسول ﷺبأقبح خطاب و أبعده عن الأدب فيقولون:-

(وَٱسۡمَعۡ)قصدهم:اسمع منا(غَيۡرَ مُسۡمَعٖ)ما تحب بل مسمع ما تكره

(وَرَٰعِنَا)سمعك افهم عنا و افهمنا

-قصدهم بذلك الرعونة بالعيب القبيح و يظنون أن اللفظ -لمَّا كان محتملا لغير ما أرادوا من الأمور-

أنه يروج على الله و على رسولهﷺ فتوصلوا بذلك اللفظِ(لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ)الذى يلوون به ألسنتهم(وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ)

للطعن فى الدين و العيب للرسول و يصرحون بذلك فيما بينهم فلهذا قال:(لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ)

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ) البقرة:١٠٤

ثم أرشدهم إلى ما هو خير لهم من ذلك فقل:-(وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ)دون (غير مسمع)

(وَٱنظُرۡنَا)بدل (راعنا)(لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ)أعدل قولا

و ذلك لما تضمنه هذا الكلام من:-

1-حسن الخطاب

2-و الأدب اللائق فى مخاطبة الرسول

3-و الدخول تحت طاعة الله و الانقياد لأمره

4-و حسن التلطف فى طلبهم العلم بسماع سؤالهم

5-و الاعتراء بأمرهم فهذا هو الذي ينبغى لهم سلوكه.

و لكن لما كانت طبائعهم غير زكية أعرضوا عن ذلك و طردهم الله بكفرهم و عنادهم

و لهذا قال:(وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ)طردهم من رحمته بسبب كفرهم وجحودهم نبوة محمد ﷺ

(فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا)فلا يصدقون بالحق إلا تصديقًا قليلا لا ينفعهم46

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم)

يأمر تعالى أهل الكتاب من اليهود و النصارى أن:-

1-يؤمنوا بالرسول محمدﷺ

2-و ما أنزل الله عليه من القرآن العظيم المهيمن على غيره من الكتب السابقة التى قد صدقها

فإنها أخبرت به فلما وقع المخبر به كان تصديقا لذلك الخبر.

*و أيضا فإنهم إن لم يؤمنوا بهذا القرآن فإنهم لم يؤمنوا بما فى أيديهم من الكتب لأن كتب الله يصدق بعضها بعضا و يوافق بعضها بعضًا.فدعوى الإيمان ببعضها دون بعض دعوى باطلة لا يمكن صدقها.

و فى قوله:(ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم)

حث لهم و أنهم ينبغى أن يكونوا قبل غيرهم مبادرين إليه بسبب ما أنعم الله عليهم به من العلم و الكتاب الذى يوجب أن يكون ما عليهم أعظم من غيرهم و لهذا توعدهم على عدم الإيمان

فقال:-(مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا)

و هذا جزاء من جنس ما عملوا كما تركوا الحق و آثروا الباطل و قلبوا الحقائق فجعلوا الباطل حقا و الحق باطلا ←جوزوا من جنس ذلك بـــ:-

1-طمس وجوههم كما طمسوا الحق (نمحو الوجوه)

2-و ردها على أدبارها بأن تجعل فى أقفائهم(نحولها قِبل الظهور)

وهذا أشنع ما يكون (أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ)بأن يطردهم من رحمته و يعاقبهم بجعلهم قردة

كما فعل بإخوانهم الذين اعتدوا فى السبت (فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ)البقرة: ٦٥

(وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا)إذا أراد شيئا فإنه لا يُخالف و لا يمانع

كقوله:(إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) يس: ٨٢

(إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ)

يخبر تعالى: أنه لا يغفر لمن أشرك به أحدا من المخلوقين و يغفر ما دون الشرك من الذنوب صغائرها و كبائرها و ذلك عند مشيئته مغفرة ذلك إذا اقتضت حكمتُه مغفرتَه.

فالذنوب التي دون الشرك قد جعل الله لمغفرتها أسبابا كثيرة كـــ:-

1-الحسنات الماحية

2-و المصائب المكفرة في الدنيا

3-و البرزخ

4-و يوم القيامة

5-و كدعاء المؤمنين بعضهم لبعض

6-و بشفاعة الشافعين.

7-و من فوق ذلك كله رحمته التي أحق بها أهل الإيمان و التوحيد.

*و هذا بخلاف الشرك فإن المشرك:-

1- قد سد على نفسه أبواب المغفرة

2-و أغلق دونه أبواب الرحمة

*فلا تنفعه :-

1-الطاعات من دون التوحيد

2-و لا تفيده المصائب شيئا

(وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ) غافر: ١٨

*و قد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة منها:البخارى

5827 - عن أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه حَدَّثَهُ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَ عَلَيْهِ ثَوْبٌ أَبْيَضُ وَ هُوَ نَائِمٌ ثُمَّ أَتَيْتُهُ وَ قَدِ اسْتَيْقَظَ فَقَالَ:-" مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ:- لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ "

قُلْتُ:وَ إِنْ زَنَى وَ إِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «وَ إِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ» قُلْتُ: وَ إِنْ زَنَى وَ إِنْ سَرَقَ؟

قَالَ: «وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ» قُلْتُ: وَ إِنْ زَنَى وَ إِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «وَ إِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ عَلَى رَغْمِ أَنْفِ أَبِي ذَرٍّ»

وَ كَانَ أَبُو ذَرٍّ إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا قَالَ: وَ إِنْ رَغِمَ أَنْفُ أَبِي ذَرٍّ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ:-

هَذَا عِنْدَ المَوْتِ أَوْ قَبْلَهُ إِذَا تَابَ وَ نَدِمَ وَ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ غُفِرَ لَهُ

*و لهذا قال تعالى (وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا)جرما كبيرا

و أي ظلم أعظم ممن سوى المخلوق – من تراب الناقص من جميع الوجوه الفقير بذاته من كل وجه

الذى لا يملك لنفسه – فضلا عمن عبده :–نفعًـا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا–

بالخالق لكل شيء الكامل من جميع الوجوه

الغنى بذاته عن جميع مخلوقاته الذى بيده :–

النفع و الضر و العطاء و المنع الذى ما من نعمة بالمخلوقين إلا فمنه تعالى

فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟ و لهذا حَتَّم على صاحبه بالخلود بالعذاب و حرمان الثواب

(إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ)و هذه الآية الكريمة فى حق غير التائب

–و أما التائب فإنه يغفر له الشرك فما دونه كما قال تعالى:–(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا)لمن تاب إليه و أناب.

(وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) لقمان: ١٣

*البخارى4477 - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ (أكثر إثما وعقابا)عِنْدَ اللَّهِ؟

1-قَالَ:«أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا(شريكا والند المثل والنظير)وَ هُوَ خَلَقَكَ»قُلْتُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟

2-قَالَ:«وَ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ(أن يأكل معك وهو عنوان شدة البخل المتنافى مع الإيمان إلى جانب الإخلال باعتقاد أن الله تعالى هو الرزاق مع فظاعة قتل النفس بغير حق وكلها آثام تستحق العقاب الشديد)»قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟

3-قَالَ:«أَنْ تُزَانِيَ(تزني فيها برضاها وهذا يدل على أنه سلك معها مسالك الخداع حتى أغراها به و أفسد على زوجها فراشه واستقراره)حَلِيلَةَ(زوجة سميت بذلك لأنها تحل له)جَارِكَ»(٤٨)

(أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم) هـذا:-

1–تعجيب من الله لعباده 2–و توبيخ للذين يزكون أنفسهم من اليهود والنصارى

و من نحا نحوهم من:– كل من زكى نفسه بأمر ليس فيه. و ذلك أن اليهود و النصارى يقولون: –

(نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)و يقولون:–(لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى)و هذا مجرد دعوى لا برهان عليها

و إنما البرهان ما أخبر به في القرآن فى قوله:-

(بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)فهؤلاء هم الذين زكاهم الله

و لهذا قال هنا: (بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ)لأنه عالم بحقائق الأمور و غوامضها

أى:–بالإيمان و العمل الصالح بـــ:–

1–التخلى عن الأخلاق الرذيلة

2–و التحلى بالصفات الجميلة.

و أما هؤلاء فهم – و إن زكوا أنفسهم بزعمهم أنهم على شيء و أن الثواب لهم وحدهم– فإنهم كذبة فى ذلك

ليس لهم من خصال الزاكين نصيب بسبب:–

1– ظلمهم

2-و كفرهم لا بظلم من الله لهم

و لهذا قال: (وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا)و هذا لتحقيق العموم أى:-

1-لا يظلمون شيئا و لا مقدار الفتيل الذى فى شق النواة

2-أو الذى يفتل من وسخ اليد و غيرها

*مسلم (3002) عَنْ أَبِي مَعْمَرٍ قَالَ:-قَامَ رَجُلٌ يُثْنِى عَلَى أَمِيرٍ مِنَ الْأُمَرَاءِ فَجَعَلَ الْمِقْدَادُ يَحْثِى عَلَيْهِ التُّرَابَ وَ قَالَ: «أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ نَحْثِىَ فِى وُجُوهِ الْمَدَّاحِينَ التُّرَابَ»

(هذا الحديث قد حمله على ظاهره المقداد الذى هو راويه ووافقه طائفة و كانوا يحثون التراب فى وجهه حقيقة وقال آخرون معناه خيبوهم فلا تعطوهم شيئا لمدحهم)

*البخارى2662 -عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ:-أَثْنَى(مدح)رَجُلٌ عَلَى رَجُلٍ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ:«وَيْلَكَ(الويل الحزن و الهلاك ويستعمل بمعنى التفجع و التعجب)قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ

(تسبب بهلاكه لأنه ربما أخذه العجب بسبب مدحك له)»مِرَارًا (كرر قوله مرات)ثُمَّ قَالَ:-

«مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَادِحًا أَخَاهُ لاَ مَحَالَةَ(لا بد منه ألبتة)فَلْيَقُلْ أَحْسِبُ(أظن)فُلاَنًا وَ اللَّهُ حَسِيبُهُ(كافيه)

وَ لاَ أُزَكِّى عَلَى اللَّهِ أَحَدًا أَحْسِبُهُ كَذَا (لا أقطع له ولا أجزم على عاقبة أحد بخير أو غيره)وَ كَذَا إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُ»

(أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ)يُثنون على(أَنفُسَهُم)بأعمالهم و يصفونها بالطهر و البعد عن السوء و اتِّكَالِهِمْ عَلَى أَعْمَالِ آبَائِهِمُ الصَّالِحَةِ ؟ ﴿٤٩﴾

(ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ)يختلقون (عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ)بتزكيتهم أنفسهم لأن هذا من أعظم الافتراء على الله.

لأن مضمون تزكيتهم لأنفسهم الإخبار بأن الله جعل ما هم عليه حقا و ما عليه المؤمنون المسلمون باطلا.

و هذا أعظم الكذب و قلب الحقائق بجعل الحق باطلا و الباطلِ حقًّا.

*و لهذا قال:(وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا)ظاهرا بينا موجبا للعقوبة البليغة و العذاب الأليم﴿٥٠﴾

(أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ)

*الصحيح المسند من أسباب النزول ابن جرير عن ابن عباس قال:-

لما قَدِمَ كعب بن الأشرف مكة قالت له قريش أنت خير أهل المدينة و سيدهم

قال: نعم قالوا ألا ترى إلى هذا الصنبور(الرجل الفرد الضعيف الذليل بلا أهل وعقب وناصر واللئيم)المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا و نحن أهل الحجيج و أهل السدانة و أهل السقاية قال: أنتم خير منه

قال: فأنزلت:{إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ} و أنزلت: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ}

إلى قوله: {فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا} .

*و هذا من قبائح اليهود و حسدهم للنبى ﷺو المؤمنين أن أخلاقهم الرذيلة و طبعهم الخبيث حملهم على:-

1-ترك الإيمان بالله و رسوله 2-و التعوض عنه بالإيمان بالجبت و الطاغوت

و هو الإيمان بكل عبادة لغير الله أو حكم بغير شرع الله

الجبت: اسم لكل ما عبد من دون الله وكذا الطاغوت سواء كانا صنمين أو رجلين وقيل: الجبت: الساحر بلغة الحبشة و الطاغوت: الكاهن.

وقال عمر ﷺ: الجبت: السحر والطاغوت: الشيطان. وقيل: هما كل ما عبد من دون الله أو مطاع فى معصية الله.

فدخل فى ذلك:-

1-السحر

2-و الكهانة

3-و عبادة غير الله

4-و طاعة الشيطان كل هذا من الجبت و الطاغوت

و كذلك حَمَلهم الكفر و الحسد على أن:-فضلوا طريقة الكافرين بالله- عبدة الأصنام-على طريق المؤمنين

فقال:-(وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟)لأجلهم تملقا لهم و مداهنة و بغضا للإيمان:

(هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا)طريقا. فما أسمجهم و أشد عنادهم و أقل عقولهم!

*كيف سلكوا هذا المسلك الوخيم و الوادى الذميم؟

*هل ظنوا أن هذا يروج على أحد من العقلاء

*أو يدخل عقلَ أحد من الجهلاء

*فهل يُفضَّل دين قام على :-

1-عبادة الأصنام و الأوثان

2-و استقام على تحريم الطيبات

3-و إباحة الخبائث

4-و إحلال كثير من المحرمات

5-و إقامة الظلم بين الخلق

6-و تسوية الخالق بالمخلوقين

7-و الكفر بالله و رسله و كتبه

على دين قام على :-

1-عبادة الرحمن

2-و الإخلاص لله فى السر و الإعلان

3-و الكفر بما يعبد من دونه من الأوثان و الأنداد و الكاذبين

4-و على صلة الأرحام و الإحسان إلى جميع الخلق حتى البهائم

5-و إقامة العدل و القسط بين الناس

6-و تحريم كل خبيث و ظلم

7-و الصدق فى جميع الأقوال و الأعمال

فهل هذا إلا من الهذيان و صاحب هذا القول:-

1–إما من أجهل الناس و أضعفهم عقلا

2–و إما من أعظمهم عنادا و تمردا و مراغمة للحق و هذا هو الواقع 51

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾
أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم
مُّلۡكًا عَظِيمٗا ﴿٥٤﴾ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا
لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾
۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ
إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ
فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾

و لهذا قال تعالى عنهم:(أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ)طردهم(ٱللَّهُۖ)من رحمته و أحل عليهم نقمته.

(وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا)يتولاه و يقوم بمصالحه و يحفظه عن المكاره و هذا غاية الخذلان52

(أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ)فيفضِّلون من شاءوا على من شاءوا بمجرد أهوائهم فيكونون شركاء لله فى تدبير المملكة

فلو كانوا كذلك لشحوا و بخلوا أشد البخل و لهذا قال:–(فَإِذٗا)

*أى لو كان لهم نصيب من الملك وَ التَّصَرُّفِ لَمَا أَعْطَوْا أَحَدًا مِنَ النَّاسِ–وَ لَا سِيَّمَا مُحَمَّدًاﷺ-شَيْئًا

(لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا)شيئًا و لا قليلا(وَ هُوَ النُّقْطَةُ الَّتِي فِي النَّوَاةِ)

و هذا وصف لهم بشدة البخل على تقدير وجود ملكهم المشارك لملك الله.

و أخرج هذا مخرج الاستفهام المتقرر إنكاره عند كل أحد.

كقوله(قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا)الإسراء: ١٠٠ 53

(أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ)

أى: هل الحامل لهم على قولهم:–

1– كونهم شركاءَ لله فيفضلون من شاءوا؟

2–أم الحامل لهم على ذلك الحسدُ للرسول و للمؤمنين على ما آتاهم الله من فضله؟

لكونه من العرب و ليس من بنى اسرائيل و ذلك ليس ببدع و لا غريب على فضل الله.

(فَقَدْ ءَاتَيْنَآ)انعمنا على(ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ)و ذريته من:–النبوة و (ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا)
الذي أعطاه من أنبيائه كـ « داود » و « سليمان »
فإنعامه لم يزل مستمرًا على عباده المؤمنين.
*فكيف ينكرون إنعامه بالنبوة و النصر و الملك لمحمد ﷺأفضل الخلق و أجلهم و أعظمهم معرفة بالله
و أخشاهم له؟ 54

(فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ)بمحمد ﷺفنال بذلك السعادة الدنيوية و الفلاح الأخروى.

(وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُۚ)عنادًا و بغيًا و حسدًا فحصل لهم من شقاء الدنيا و مصائبها ما هو بعض آثار معاصيهم

(وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا)

تسعر على من كفر بالله و جحد نبوة أنبيائه من اليهود و النصارى و غيرهم من أصناف الكفرة55

و لهذا قال:–(إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا)عظيمة الوقود شديدة الحرارة

(كُلَّمَا نَضِجَتْ)احترقت(جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَۗ)ليبلغ العذاب منهم كل مبلغ.
و كما تكرر منهم الكفر و العناد و صار وصفا لهم و سجية كرر عليهم العذاب جزاء وِفاقا

أوجـه الإعجاز:-

(أ) بيّن الله ـ سبحانه و تعالى ـ أن الجلد محل العذاب فربط ـ جل وعلا ـ بين الجلد و الإحساس بالألم فى قوله تعالى: (كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ)فتبين بذلك أن الجلد وسيلة إحساس الكافرين بعذاب النار.و أنه حينما ينضج الجلد و يحترق و يفقد تركيبه و وظيفته و يتلاشى الإحساس بألم العذاب يستبدل بجلد جديد مكتمل التركيب تام الوظيفة تقوم فيه النهايات العصبيةـالمتخصصة بالإحساس بالحرارة و بآلام الحريق بأداء دورها ومهمتها لتجعل هذا الإنسان الكافر بآيات الله تعالى يذوق عذاب الاحتراق بالنار.و لقد كشف العلم الحديث أن النهايات العصبية المتخصصة للإحساس بالحرارة وآلام الحريق لا توجد بكثافة إلا فى الجلد وما كان بوسع أحد من البشر قبل اختراع المجهر و تقدم علم التشريح الدقيق أن يعرف هذه الحقيقة التى أشار إليها القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنًا..
وهكذا تتجلى المعجزة و تظهر آيات الله تعالى.
(ب) هدّد القرآن الكريم الكفار بالعذاب بماء حميم يقطع أمعاءهم و اتضح السر فى هذا التهديد أخيراً باكتشاف أن الأمعاء لا تتأثر بالحرارة و لكنها إذا قطعت خرج منها الماء الحميم إلى البريتون الجدارى الذى يغذّى بأعصاب الجدار التى تغذى الجلد وعضلات الصدر و البطن
و تتأثر هذه الأعصاب باللمس أو الحرارة فيسبب الحميم بعد تقطيع الأمعاء أعلى درجات الألم.
أما العذاب عن طريق الجلد فيختلف عن ذلك لاختلاف طبيعة تركيب الجلد فلا يكون استمرار الإحساس بالعذاب في الجلد إذا نضج ـ إلا بتجديد جلد جديد.
فاختلاف الوصف لكيفية تحقيق العذاب بالنار من الخارج:-
1-عن طريق تبديل الجلد كلما نضج 2-و من الداخل: بتقطيع الأمعاء بالحميم

و لهذا قال: (إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا)له العزة العظيمة و الحكمة فى خلقه و أمره و ثوابه و عقابه56

(وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ)بالله و ما أوجب الإيمانَ به

(وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ)من الواجبات و المستحبات

(سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ)

من الأخلاق الرذيلة و الخلْق الذميم و مما يكون من نساء الدنيا من كل دنس و عيب

(وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا)ظلا عميقا كثيرا غزيرا طيبًا أنيقا

*البخارى3251 -عن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:-«إِنَّ فِي الجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لاَ يَقْطَعُهَا»57

أداء الأمانات و الحكم بالعدل 58-59

(إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ)

الأمانات:–كل ما ائتمن عليه الإنسان و أمر بالقيام به.

فأمر الله عباده بأدائها أى:– كاملة موفرة لا منقوصة و لا مبخوسة و لا ممطولا بها

و يدخل في ذلك أمانات:–

1–الولايات 2–و الأموال 3–و الأسرار 4–و المأمورات التى لا يطلع عليها إلا الله.

*و قد ذكر الفقهاء على أن من اؤتمن أمانة وجب عليه حفظها فى حرز مثلها. قالوا:–

لأنه لا يمكن أداؤها إلا بحفظها فوجب ذلك.

(إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا)دلالة على أنها لا تدفع و تؤدى لغير المؤتمِن و وكيلُه بمنزلته فلو دفعها لغير ربها لم يكن مؤديا لها.

*وَ مِنْ حُقُوقِ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ كَالْوَدَائِعِ وَ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَأْتَمِنُونَ بِهِ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْ غَيْرِ اطِّلَاعِ بَيِّنَةٍ عَلَى ذَلِكَ. فَأَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَدَائِهَا فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا أُخِذَ مِنْهُ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ في مسلم :-(2582) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺقَالَ:
«لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ»

(وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ)و هذا يشمل الحكم بينهم فى:–

الدماء و الأموال و الأعراض القليل من ذلك و الكثير على القريب و البعيد و البر و الفاجر و الولى و العدو.

و المراد بالعدل الذى أمر الله بالحكم به هو:–ما شرعه الله على لسان رسوله من الحدود و الأحكام

و هذا يستلزم معرفة العدل ليحكم به

و لما كانت هذه أوامر حسنة عادلة قال:–(إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا)ما(يَعِظُكُم بِهِۦٓ)من أوامره و نواهيه(إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا)

و هذا مدح من الله لأوامره و نواهيه لاشتمالها على مصالح الدارين و دفع مضارهما

لأن شارعها السميع البصير الذى لا تخفى عليه خافية و يعلم بمصالح العباد ما لا يعلمون.

*أبي داود 4728 -عن أَبِي يُونُسَ سُلَيْمُ بْنُ جُبَيْرٍ مَوْلَى أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:-سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ

{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا}[النساء: 58]إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى {سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء: 58]

قَالَ:«رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺيَضَعُ إِبْهَامَهُ عَلَى أُذُنِهِ وَ الَّتِي تَلِيهَا عَلَى عَيْنِهِ» قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ:-

«رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺيَقْرَؤُهَا وَ يَضَعُ إِصْبَعَيْهِ»قَالَ ابْنُ يُونُسَ:-قَالَ الْمُقْرِئُ: يَعْنِي: إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ

يَعْنِي أَنَّ لِلَّهِ سَمْعًا وَ بَصَرًا قَالَ أَبُو دَاوُدَ:-«وَ هَذَا رَدٌّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ»58

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ)اتَّبِعوا كِتَابَهُ

(وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ)خُذُوا بِسُنَّتِهِ

*أمر بطاعته و طاعة رسوله و ذلك بـ:-1-امتثال أمرهما الواجب و المستحب2-و اجتناب نهيهما

(وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ)فِيمَا أَمَرُوكُمْ بِهِ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ لَا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَإِنَّهُ لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ:-"إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ"

(وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ)و هم:-الولاة على الناس من:-1-الأمراء 2-و الحكام 3-و المفتين 4-العلماء

*و أما أولو الأمر فشرط الأمر بطاعتهم:-"أن لا يكون معصية" لأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق.

فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم و دنياهم إلا بطاعتهم و الانقياد لهم طاعة لله و رغبة فيما عنده

و لعل هذا هو السر فى حذف الفعل عند الأمر بطاعتهم و ذكره مع طاعة الرسول:-

فإن الرسول لا يأمر إلا بطاعة الله و من يطعه فقد أطاع الله

*وَ الظَّاهِرُ -وَ اللَّهُ أَعْلَمُ-أَنَّ الْآيَةَ فِي جَمِيعِ أُولِي الْأَمْرِ مِنَ الْأُمَرَاءِ و الْعُلَمَاءِ كَمَا تَقَدَّمَ.

وَ قَدْ قَالَ تَعَالَى:-{لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ}[الْمَائِدَة:63]

وَ قَالَ تَعَالَى:-{فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النَّحْل:43]

*البخاري7137-أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:-أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:-

«مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَ مَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَ مَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي

(هو كل من يتولى على المسلمين ويعمل فيهم بما شرعه رسول الله ﷺ) فَقَدْ أَطَاعَنِي وَ مَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي»

*البخارى 4584 - عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:-{أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} [النساء: 59]

قَالَ:«نَزَلَتْ فِى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ عَدِيٍّ إِذْ بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺفِي سَرِيَّةٍ»(قطعة من الجيش)

*البخارى 7145 - عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:-بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺسَرِيَّةً وَ أَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ وَ أَمَرَهُمْ أَنْ

يُطِيعُوهُ فَغَضِبَ عَلَيْهِمْ وَ قَالَ:-أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺأَنْ تُطِيعُونِي؟ قَالُوا: بَلَى قَالَ:-

قَدْ عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ(آمركم و أؤكد أمرى لكم وأجد فيه)لَمَا جَمَعْتُمْ حَطَبًا وَ أَوْقَدْتُمْ نَارًا ثُمَّ دَخَلْتُمْ فِيهَا فَجَمَعُوا حَطَبًا

فَأَوْقَدُوا نَارًا فَلَمَّا هَمُّوا بِالدُّخُولِ فَقَامَ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالَ بَعْضُهُمْ:-

إِنَّمَا تَبِعْنَا النَّبِيَّ ﷺفِرَارًا مِنَ النَّارِ أَفَنَدْخُلُهَا؟فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ خَمَدَتِ النَّارُ وَ سَكَنَ غَضَبُهُ

فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ:-«لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا(لأن الدخول فيها معصية فإذا استحلوها كفروا واستحقوا الخلود فيها وهذا جزاء من جنس العمل)

مِنْهَا أَبَدًا إِنَّمَا الطَّاعَةُ(للأمر واجبة) فِي الْمَعْرُوفِ(هو ما لا يتنافى مع الشرع)»

*البخارى 2955 - عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِىِّ ﷺ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ:-
«السَّمْعُ وَ الطَّاعَةُ حَقٌّ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِالْمَعْصِيَةِ فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلاَ سَمْعَ وَ لاَ طَاعَةَ»
*البخارى7055-عن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ وَ هُوَ مَرِيضٌ قُلْنَا:-أَصْلَحَكَ اللَّهُ(كلمة اعتادوا أن يقولوها عند الطلب أو المراد الدعاء له بإصلاح جسمه ليعافى من مرضه)حَدِّثْ بِحَدِيثٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِ سَمِعْتَهُ مِنَ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ:-
دَعَانَا النَّبِىُّ ﷺ فَبَايَعْنَاهُ7056-فَقَالَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا(اشترط علينا):-أَنْ بَايَعَنَا عَلَى:-
1-السَّمْعِ وَ الطَّاعَةِ(لله تعالى و رسوله ﷺ)فِى مَنْشَطِنَا(حالة نشاطنا)وَ مَكْرَهِنَا(فى الأشياء التي نكرهها وتشق علينا)وَ عُسْرِنَا وَ يُسْرِنَا وَ أَثَرَةً عَلَيْنَا(استئثار الأمراء بحظوظهم واختصاصهم إياها بأنفسهم أى ولو منعنا حقوقنا)
2-وَ أَنْ لاَ نُنَازِعَ الأَمْرَ(الملك و الإمارة)أَهْلَهُ إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا(منكرا محققا تعلمونه من قواعد الإسلام فتكون المنازعة بالإنكار عليهم. أو كفرا ظاهرا فينازعون بالقتال والخروج عليهم وخلعهم)بَوَاحًا(ظاهرا و باديا)عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ(نص آية أو خبر صحيح لا يحتمل التأويل)»
*البخارى 693 - عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ:-
«اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَ إِنِ اسْتُعْمِلَ(جعل واليا أو غيره)حَبَشِىٌّ(نسبة إلى الحبش وهم نوع من السودان.) كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ»
(ه ى حبة العنب اليابسة و التشبيه من حيث السواد وقصر الشعر وشدة تجعده وصغره وغير ذلك مما يحتقر عادة لدى الناس)
*مسلم (1298) عَنْ أُمِّ الْحُصَيْنِ قَالَ: سَمِعْتُهَا تَقُولُ:-حَجَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَجَّةَ الْوَدَاعِ فَرَأَيْتُهُ حِينَ رَمَى جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ وَ انْصَرَفَ وَ هُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ وَ مَعَهُ بِلاَلٌ وَ أُسَامَةُ أَحَدُهُمَا يَقُودُ بِهِ رَاحِلَتَهُ وَ الآخَرُ رَافِعٌ ثَوْبَهُ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الشَّمْسِ قَالَتْ: -
فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَوْلًا كَثِيرًا ثُمَّ سَمِعْتُهُ يَقُولُ:-«إِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ مُجَدَّعٌ-(أى مقطع الأعضاء و التشديد للتكثير و إلا فالجدع قطع الأنف و الأذن و الشفة و الذى قطع منه ذلك أجدع و الأنثى جدعاء والمقصود التنبيه على نهاية خسته فإن العبد خسيس فى العادة ثم سواده نقص آخر وجدعه نقص آخر و من هذه الصفات مجموعة فيه فهو فى نهاية الخسة والعادة أن يكون ممتهنا فى أرذل الأعمال)حَسِبْتُهَا قَالَتْ - أَسْوَدُ
يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللهِ تَعَالَى فَاسْمَعُوا لَهُ وَ أَطِيعُوا»
*البخارى 3455-عن أَبِى حَازِمٍ قَالَ:-قَاعَدْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ خَمْسَ سِنِينَ فَسَمِعْتُهُ يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ: -
«كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبِيَاءُ(تتولى أمورهم والسياسة القيام على الشيء بما يصلحه)
كُلَّمَا هَلَكَ نَبِىٌّ خَلَفَهُ نَبِىٌّ وَ إِنَّهُ لاَ نَبِىَّ بَعْدِى وَ سَيَكُونُ خُلَفَاءُ فَيَكْثُرُونَ(أي يكون أكثر من حاكم واحد للمسلمين في زمن واحد)»
قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ:-
«فُوا(من الوفاء)بِبَيْعَةِ الأَوَّلِ فَالأَوَّلِ(أى إن الذى تولى الأمر وبويع قبل غيره هو صاحب البيعة الصحيحة التى يجب الوفاء بها و بيعة الثانى باطلة يحرم الوفاء بها مطلقا) أَعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ(أطيعوهم فى غير معصية)فَإِنَّ اللَّهَ سَائِلُهُمْ(محاسبهم بالخير والشر عن حال رعيتهم)عَمَّا اسْتَرْعَاهُمْ»

(فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ)

ثم أمر برد كل ما تنازع الناس فيه من أصول الدين و فروعه إلى الله و إلى رسوله أى:إلى كتاب الله و سنة رسوله

فإن فيهما الفصل فى جميع المسائل الخلافية إما :-

1-بصريحهما 2-أو عمومهما 3-أو إيماء 4-أو تنبيه 5-أو مفهوم 6-أو عموم معنى يقاس عليه ما أشبهه

لأن كتاب الله و سنة رسوله عليهما بناء الدين و لا يستقيم الإيمان إلا بهما. فالرد إليهما شرط فى الإيمان

*كقوله(وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ) الشورى: ١٠

فلهذا قال: (إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ)

فدل ذلك على أن من لم يرد إليهما مسائل النزاع فليس بمؤمن حقيقة بل مؤمن بالطاغوت فليس مؤمنا بالله

و لا باليوم الآخر كما ذكر فى الآية بعدها (ذَٰلِكَ)أى:–الرد إلى الله و رسوله

(خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا)عاقبة و مآلا

فإن حكم الله و رسوله أحسن الأحكام و أعدلها و أصلحها للناس فى أمر دينهم و دنياهم و عاقبتهم 59

أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ
إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴿٦٠﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ﴿٦١﴾
فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ
إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ
فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴿٦٣﴾
وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ
فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾
فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ
ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾

*الصحيح المسند من أسباب النزول:المعجم الكبير 12045 -عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ:
كَانَ أَبُو بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيُّ كَاهِنًا يَقْضِي بَيْنَ الْيَهُودِ فِيمَا يَتَنَافَرُونَ إِلَيْهِ فتنافرَ إِلَيْهِ نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ
فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطاغوتِ
وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ}[النساء: 60]إِلَى قَوْلِهِ {إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا} [النساء: 62]

القتال لضمان حقوق المستضعفين 60-104

يعجب تعالى عباده من حالة المنافقين.(أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ)مؤمنون بما جاء به الرسول و بما قبله
و مع هذا (يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ) و هو كل من حكم بغير شرع الله فهو طاغوت.

مزاعم المنافقين و مواقفهم 60-68

و الحال أنهم (وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ)فكيف يجتمع هذا و الإيمان؟
فإن الإيمان يقتضى الانقياد لشرع الله و تحكيمه فى كل أمر من الأمور
فمَنْ زعم أنه مؤمن و اختار حكم الطاغوت على حكم الله فهو كاذب فى ذلك. و هذا من إضلال الشيطان إياهم
و لهذا قال: (وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا)عن الحق60
(وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ)يعرضون(عَنكَ صُدُودٗا)
اعراضا كالمستكبرين عن ذلك كما قال الله:-(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ)البقرة: ١٧٠بخلاف المؤمنين الذين قال الله فيهم

(إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)النور: ٥١ 61

(فَكَيْفَ)يكون حال هؤلاء الضالين

(فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ)من المعاصى و منها تحكيم الطاغوت؟!

(ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ)معتذرين لما صدر منهم و يقولون:-(إِنْ أَرَدْنَا)ما قصدنا فى ذلك (إِلَّا إِحْسَانًا)إلى المتخاصمين (وَتَوْفِيقًا)بينهم و هم كَذَبة فى ذلك.فإن الإحسان كل الإحسان تحكيم الله و رسوله

(أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ) المائدة: ٥٠

*يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكَ وَ يَحْلِفُونَ: مَا أَرَدْنَا بِذَهَابِنَا إِلَى غَيْرِكَ وَ تَحَاكُمِنَا إِلَى عَدَاكَ إِلَّا الْإِحْسَانَ وَ التَّوْفِيق
أَيْ: الْمُدَارَاةَ وَ الْمُصَانَعَةَ لَا اعْتِقَادًا مِنَّا صِحَّةَ تِلْكَ الْحُكُومَةِ كَمَا أَخْبَرَنَا تَعَالَى عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ:

{فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىأَنْ تُصِيبَنَا دَابِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ} [الْمَائِدَةِ:52] 62

و لهذا قال:-(أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ)من النفاق و القصد السيئ.

(فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ)لا تبال بهم و لا تقابلهم على ما فعلوه و اقترفوه.

(وَعِظْهُمْ)بين لهم حكم الله تعالى مع الترغيب في الانقياد لله و الترهيب من تركه

(وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا)انصحهم سرا بينك و بينهم

فإنه أنجح لحصول المقصود و بالغ فى زجرهم و قمعهم عمَّا كانوا عليه

و فى هذا دليل على أن:-

1-مقترف المعاصى و إن أعرض عنه فإنه ينصح سرًا 2-و يبالغ فى وعظه بما يظن حصول المقصود به63

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ)

يخبر تعالى خبرا فى ضمنه:-

1-الأمر و الحث على طاعة الرسول و الانقياد له.

2-و أن الغاية من إرسال الرسل أن يكونوا مطاعين ينقاد لهم المرسلُ إليهم في جميع ما أمروا به و نهوا عنه

3-و أن يكونوا معظمين تعظيم المطيع للمطاع.

4-و فى هذا إثبات عصمة الرسل فيما يبلغونه عن الله و فيما يأمرون به و ينهون عنه لأن الله أمر بطاعتهم مطلقا فلولا أنهم معصومون لا يشرعون ما هو خطأ لما أمر بذلك مطلقا.

و قوله: (بِإِذْنِ اللَّهِ)الطاعة من المطيع صادرة بقضاء الله و قدره.

ففيه:-1-إثبات القضاء و القدر و 2-الحث على الاستعانة بالله

و بيان أنه لا يمكن الإنسان – إن لم يعنه الله– أن يطيع الرسول.

كقوله(وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ) آل عمران: ١٥٢

*ثم أخبر عن كرمه العظيم وجوده و دعوته لمن اقترفوا السيئات أن يعترفوا و يتوبوا و يستغفروا الله فقال:–

(وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ)معترفين بذنوبهم باخعين بها.

(فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا)لتاب عليهم بمغفرته ظلْمَهم

(رَّحِيمًا)و رحمهم بقبول التوبة و التوفيق لها و الثواب عليها و هذا المجيء إلى الرسول ﷺمختص بحياته

لأن السياق يدل على ذلك لكون الاستغفار من الرسول لا يكون إلا فى حياته

*و أما بعد موته فإنه لا يطلب منه شيء بل ذلك شرك64

ثم أقسم تعالى بنفسه الكريمة(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ)لا يتم إيمانهم(حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ)

فى كل شيء يحصل فيه اختلاف بخلاف مسائل الإجماع فإنها لا تكون إلا مستندة للكتاب و السنة

(ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا)ثم لا يكفى هذا التحكيم حتى ينتفى الحرج من قلوبهم و الضيق

(مِّمَّا قَضَيْتَ)به و كونهم يحكمونه على وجه الإغماض

ثم لا يكفى ذلك حتى (وَيُسَلِّمُواْ) لحكمه (تَسْلِيمًا) بـــ:–

1–انشراح صدر 2–و طمأنينة نفس 3–و انقياد بالظاهر و الباطن

*فالتحكيم فى مقام الإسلام و انتفاء الحرج فى مقام الإيمان و التسليم فى مقام الإحسان.

فمَن استكمل هذه المراتب و كملها فقد استكمل مراتب الدين كلها.

فمَن ترك هذا التحكيم المذكور غير ملتزم له فهو كافر و مَن تركه مع التزامه فله حكم أمثاله من العاصين.

*البخارى2359-عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ حَدَّثَهُ:-

أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ خَاصَمَ الزُّبَيْرَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺفِي شِرَاجِ(جمع شرج وهو مسيل الماء من المرتفع إلى السهل)الحَرَّةِ

(الأرض الصلبة الغليظة ذات الحجارة السوداء و فى المدينة حرتان)الَّتِى يَسْقُونَ بِهَا النَّخلَ فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ:-

سَرِّح(أرسله و سيبه)المَاءَ يَمُرُّ فَأَبَى عَلَيْهِ؟فَاخْتَصَمَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺلِلزُّبَيْرِ:-

«أَسْقِ يَا زُبَيْرُ ثُمَّ أَرْسِلِ المَاءَ إِلَى جَارِكَ»فَغَضِبَ الأَنْصَارِيُّ فَقَالَ: أَنْ كَانَ ابْنَ عَمَّتِكَ؟

(لأنه كان ابن عمتك حكمت له بذل قال ذلك عند الغضب وكان زلة منه ﷺ)فَتَلَوَّنَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺثُمَّ قَالَ:-

«اسْقِ يَا زُبَيْرُ ثُمَّ احْبِسِ المَاءَ حَتَّى يَرْجِعَ(يصل)إِلَى الجَدْرِ(الحواجز التى تحبس الماء و المعنى حتى تبلغ تمام الشرب)»

فَقَالَ الزُّبَيْرُ:-"وَ اللَّهِ إِنِّي لَأَحْسِبُ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ:{فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ}

[النساء: 65] 65

وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ
وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴿٦٦﴾ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٦٧﴾
وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ
عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾
ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ
فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ
عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ
يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ
ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٧٤﴾

*يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَكْثَرِ النَّاسِ أَنَّهُمْ لَوْ أُمِرُوا بِمَا هُمْ مُرْتَكِبُونَهُ مِنَ الْمَنَاهِي لَمَا فَعَلُوهُ لِأَنَّ طِبَاعَهُمُ الرَّدِيئَةَ مَجْبُولَةٌ عَلَى مُخَالَفَةِ الْأَمْرِ

وَ هَذَا مِنْ عِلْمِهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بِمَا لَمْ يَكُنْ أَوْ كَانَ فَكَيْفَ كَانَ يَكُونُ وَ لِهَذَا قَالَ تَعَالَى:

(وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ)على عبادهالأوامر الشاقة على النفوس(أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم):-

قتل النفوس و الخروج من الديار

(مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا)لم يفعله إلا الـ(قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡ)و النادر

فليحمدوا ربهم و ليشكروه على تيسير ما أمرهم به من الأوامر التى تسهل على كل أحد و لا يشق فعلها

و فى هذا إشارة إلى:-

أنه ينبغى أن يلحظ العبد ضد ما هو فيه من المكروهات لتخف عليه العبادات و يزداد حمدًا و شكرًا لربه.

◄ تثبيتٌ من الله

كُنتُ إذا سمعتُ بالفتنِ من حولنا وكثرتها وكثرة المعاصي؛ أبحث عن وسائل للثبات على دين الله، ومع تأمُّلي في القرآن الكريم؛ وجدتُ هذه الوسائل فعلا في قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴿٦٦﴾ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ النساء: ٦٦-٦٨

فجعلتُ شعاري بعدها العمل بما أعلم، حتى حصلت على بعض الثمار، ومنها:

معونة الله عز وجل لي على القيام بالطاعات بأسهل الطرق.

(وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ)أى ما وُظِّف عليهم فى كل وقت بحسبه فـــــ:-

1-بذلوا هممهم 2-و وفروا نفوسهم للقيام به و تكميله

3-و لم تطمح نفوسهم لما لم يصلوا إليه و لم يكونوا بصدده

*و هذا هو الذى ينبغي للعبدأن ينظر إلى الحالة التى يلزمه القيام بها فيكملها

*ثم يتدرج شيئًا فشيئًا حتى يصل إلى ما قدر له من العلم و العمل فى أمر الدين و الدنيا

*و هذا بخلاف من طمحت نفسه إلى أمر لم يصل إليه و لم يؤمر به بعد فإنه لا يكاد يصل إلى ذلك بسبب تفريق الهمة و حصول الكسل و عدم النشاط66

*ثم رتب ما يحصل لهم على فعل ما يوعظون به و هو أربعة أمور: -

(أحدها)الخيرية فى قوله: (لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ) أى:-

لكانوا من الأخيار المتصفين بأوصافهم من أفعال الخير التي أمروا بها أى:-

و انتفى عنهم بذلك صفة الأشرار لأن ثبوت الشيء يستلزم نفى ضده.

(الثانى)(وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا)حصول التثبيت و الثبات و زيادته فإن الله يثبت الذين آمنوا بسبب ما قاموا به من الإيمان الذى هو القيام بما وعظوا به

1-فيثبتهم فى الحياة الدنيا عند ورود الفتن فى:-الأوامر و النواهى و المصائب

فيحصل لهم ثبات يوفقون لفعل الأوامر و ترك الزواجر التى تقتضى النفس فعلها

2-و عند حلول المصائب التي يكرهها العبد.فيوفق للتثبيت بـالتوفيق للصبر أو للرضا أو للشكر فينزل عليه معونة من الله للقيام بذلك

3-و يحصل له الثبات على الدين عند الموت و في القبر.

4-و أيضا فإن العبد القائم بما أمر به لا يزال يتمرن على الأوامر الشرعية حتى يألفها و يشتاق إليها و إلى أمثالها فيكون ذلك معونة له على الثبات على الطاعات.

(الثالث)قوله:-(وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا)أى:-فى العاجل و الآجل الذى يكون للروح و القلب و البدن و من النعيم المقيم مما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر67

(الرابع)(وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا)الهداية إلى صراط مستقيم.

و هذا عموم بعد خصوص لشرف الهداية إلى الصراط المستقيم

من كونها متضمنة لـ:-1-العلم بالحق 2-و محبته و إيثاره

3-و العمل به و توقف السعادة و الفلاح على ذلك

فمن هُدِىَ إلى صراط مستقيم فقد وُفِّقَ لكل خير و اندفع عنه كل شر و ضير.

*الصحيح المسند من أسباب النزول:المعجم الصغير 52 - عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ:-

جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺفَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ وَ اللهِ إِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِى وَ إِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي وَمَالِي وَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وَلَدِى وَ إِنِّي لَأَكُونُ فِي الْبَيْتِ فَأَذْكُرُكَ فَمَا أَصْبِرُ حَتَّى آتِيَكَ فَأَنْظُرَ إِلَيْكَ وَ إِذَا ذَكَرْتُ مَوْتِي وَ مَوْتَكَ عَرَفْتُ أَنَّكَ إِذَا دَخَلْتَ الْجَنَّةَ رُفِعَتْ مَعَ النَّبِيِّينَ و إِنِّي إِذَا دَخَلْتُ الْجَنَّةَ خَشِيتُ أَنْ لَا أَرَاكَ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺشَيْئًا حَتَّى نَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلامبِهَذِهِ الْآيَةِ: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ} [النساء: 69] " ۞

منزلة و ثواب الطائعين 69-70

(وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ)

كل مَنْ أطاع الله و رسوله على حسب حاله و قدر الواجب عليه من ذكر و أنثى و صغير و كبير

(فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم)أى:-النعمة العظيمة التى تقتضى الكمال و الفلاح و السعادة

(مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ)الذين فضلهم الله بوحيه و اختصهم بتفضيلهم بإرسالهم إلى الخلق و دعوتهم إلى الله تعالى

(وَٱلصِّدِّيقِينَ)و هم: الذين كمل تصديقهم بما جاءت به الرسل فعلموا الحق و صدقوه بيقينهم و بالقيام به قولا و عملا و حالا و دعوة إلى الله

(وَٱلشُّهَدَآءِ)الذين قاتلوا فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله فقتلوا

(وَٱلصَّٰلِحِينَۚ)

الذين صلح ظاهرهم و باطنهم فصلحت أعمالهم فكل من أطاع الله تعالى كان مع هؤلاء فى صحبتهم

(وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا)بالاجتماع بهم في جنات النعيم و الأنس بقربهم فى جوار رب العالمين.

*البخارى 4586 - عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺيَقُولُ:-

«مَا مِنْ نَبِيٍّ يَمْرَضُ إِلَّا خُيِّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَ الآخِرَةِ»وَ كَانَ فِي شَكْوَاهُ الَّذِى قُبِضَ فِيهِ أَخَذَتْهُ بُحَّةٌ شَدِيدَةٌ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: {مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ}[النساء: 69]فَعَلِمْتُ أَنَّهُ خُيِّرَ

*البخارى4437 - عن عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺوَ هُوَ صَحِيحٌ يَقُولُ:-

إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ(يموت)نَبِيٌّ قَطُّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ ثُمَّ يُحَيَّا(يسلم عليه سلام الوداع أو يملك إليه أمره) أَوْ يُخَيَّرَ فَلَمَّا اشْتَكَى وَ حَضَرَهُ القَبْضُ وَ رَأْسُهُ عَلَى فَخِذِ عَائِشَةَ غُشِيَ عَلَيْهِ فَلَمَّا أَفَاقَ شَخَصَ (ارتفع أو فتح عينيه)بَصَرُهُ نَحْوَ سَقْفِ البَيْتِ ثُمَّ قَالَ:-«اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى»فَقُلْتُ:- إِذًا لاَ يُجَاوِرُنَا(لا يبقى حيا فى جوارنا وفي رواية أى لا يختار البقاء فى الدنيا)فَعَرَفْتُ أَنَّهُ حَدِيثُهُ (أى عرفت من قوله أنه يخير كما كان يحدث عن تخيير الأنبياء عليهم السلام)الَّذِى كَانَ يُحَدِّثُنَا وَ هُوَ صَحِيحٌ

*مسلم (489) عن رَبِيعَةُ بْنُ كَعْبٍ الْأَسْلَمِيُّ قَالَ:-كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺفَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَ حَاجَتِهِ فَقَالَ لِي: «سَلْ» فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ. قَالَ: «أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ» قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ. قَالَ:«فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»

*البخارى 6168 - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺأَنَّهُ قَالَ: «المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»69

(ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ)الذى نالوه(مِنَ ٱللَّهِۚ)
فهو الذى وفقهم لذلك و أعانهم عليه و أعطاهم من الثواب ما لا تبلغه أعمالهم
(وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا)يعلم أحوال عباده و من يستحق منهم الثواب الجزيل بما قام به من الأعمال الصالحة التى تواطأ عليها القلب و الجوارح70

قواعد الجهاد و موقف المنافقين منه 71-74

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ)
يأمر تعالى عباده المؤمنين بأخذ حذرهم من أعدائهم الكافرين. و هذا يشمل الأخذ بجميع الأسباب التى بها يستعان على قتالهم و يستدفع مكرهم و قوتهم من:-
1-استعمال الحصون و الخنادق 2-و تعلم الرمى و الركوب3-و تعلم الصناعات التى تعين على ذلك و ما به يعرف:-مداخلهم و مخارجهم و مكرهم و النفير فى سبيل الله.
و لهذا قال:-(فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ)متفرقين بأن تنفر سرية أو جيش و يقيم غيرهم
(أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا)و كل هذا تبع للمصلحة و النكاية و الراحة للمسلمين فى دينهم و هذه الآية نظير قوله تعالى:-(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ) 71
*ثم أخبر عن ضعفاء الإيمان المتكاسلين عن الجهاد فقال:-(وَإِنَّ مِنكُمۡ)أيها المؤمنون
(لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ)1-أى: يتثاقل عن الجهاد فى سبيل الله ضعفا و خورا و جبنا هذا الصحيح.
2-و قيل معناه: ليبطئن غيرَه أى:-يزهده عن القتال و هؤلاء هم المنافقون كعبد الله بن أبي بن سلول
*و لكن الأول أَولى لوجهين:- أحدهما: قوله (مِنكُمۡ) و الخطاب للمؤمنين.
و الثاني: قوله فى آخر الآية: (لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ)
فإن الكفار من المشركين و المنافقين قد قطع الله بينهم و بين المؤمنين المودة.
و أيضا فإن هذا هو الواقع فإن المؤمنين على قسمين: -
1-صادقون فى إيمانهم أوجب لهم ذلك كمال التصديق و الجهاد.
2-و ضعفاء دخلوا فى الإسلام فصار معهم إيمان ضعيف لا يقوى على الجهاد.
كما قال تعالى: -(قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا) إلى آخر الآيات.
*ثم ذكر غايات هؤلاء المتثاقلين و نهاية مقاصدهم و أن معظم قصدهم الدنيا و حطامها فقال:
(فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ)هزيمة و قتل و ظفر الأعداء عليكم في بعض الأحوال لما لِله فى ذلك من الحكم.
(قَالَ)ذلك المتخلف(قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا)حين لم أكن حاضرًا
رأى من ضعف عقله و إيمانه أن التقاعد عن الجهاد الذى فيه تلك المصيبة نعمة.

و لم يدر أن النعمة الحقيقية هى التوفيق لهذه الطاعة الكبيرة التي :-

1-بها يقوى الإيمان 2-و يسلم بها العبد من العقوبة و الخسران

3-و يحصل له فيها عظيم الثواب و رضا الكريم الوهاب.

*و لم يدر ما فاته من الأجر فى الصبر أو الشهادة إن قُتل

*و أما القعود فإنه و إن استراح قليلا فإنه يعقبه تعب طويل و آلام عظيمة و يفوته ما يحصل للمجاهدين72

ثم قال:(وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ)نصر و غنيمة

(لَيَقُولَنَّ)حاسدا متحسرا

(كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا)

بالنجاة من معرة التخلف و الظفر بالغنائم و العودة سالماً.

أي: يتمنى أنه حاضر لينال من المغانم ليس له رغبة و لا قصد في غير ذلك كأنه ليس منكم يا معشر المؤمنين و لا بينكم و بينه المودة الإيمانية التي من مقتضاها أن المؤمنين مشتركون في جميع مصالحهم و دفع مضارهم يفرحون بحصولها و لو على يد غيرهم من إخوانهم المؤمنين و يألمون بفقدها و يسعون جميعا في كل أمر يصلحون به دينهم و دنياهم فهذا الذي يتمنى الدنيا فقط ليست معه الروح الإيمانية المذكورة.

*و من لطف الله بعباده أن لا يقطع عنهم رحمته و لا يغلق عنهم أبوابها73

بل من حصل منه غير ما يليق أمره و دعاه إلى جبر نقصه و تكميل نفسه فلهذا أمر هؤلاء بالإخلاص و الخروج في سبيله فقال:-

(فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ)هذا أحد الأقوال فى هذه الآية و هو أصحها.

و قيل: إن معناه: فليقاتل فى سبيل الله المؤمنون الكاملو الإيمان الصادقون فى إيمانهم

(ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ)يبيعون (ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا)رغبة عنها (بِٱلۡأٓخِرَةِ) رغبة فيها.

فإن هؤلاء الذين يوجه إليهم الخطاب لأنهم الذين قد أعدوا أنفسهم و وطَّنوها على جهاد الأعداء لِما معهم من الإيمان التام المقتضى لذلك.

و أما أولئك المتثاقلون فلا يعبأ بهم خرجوا أو قعدوا فيكون هذا نظير قوله تعالى:

(قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا)إلى آخر الآيات.

و قوله: (فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ)و قيل: إن معنى الآيــة:-

فليقاتل المقاتل و المجاهد للكفار الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة فيكون على هذا الوجه « الذين » فى محل نصب على المفعولية.

(وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ)بأن يكون جهادا قد أمر الله به و رسوله و يكون العبد مخلصا لله فيه قاصدا وجه الله.

(فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا)زيادة فى إيمانه و دينه و غنيمة و ثناء حسنا

و ثواب المجاهدين فى سبيل الله الذين أعد الله لهم فى الجنة:–

ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر

*البخارى 3123-عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺقَالَ:-

«تَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ لاَ يُخْرِجُهُ إِلَّا الجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ وَ تَصْدِيقُ كَلِمَاتِهِ(مصدقا بما وعد الله تعالى فى كتابه من أجر على الجهاد)بِأَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ أَوْ يَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِى خَرَجَ مِنْهُ مَعَ مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ»74

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ
ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ
إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ
فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا
ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾
أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ
وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾
مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

هذا حث من الله لعباده المؤمنين و تهييج لهم على القتال فى سبيله و أن ذلك قد تعين عليهم و توجه اللوم العظيم عليهم بتركه فقال:-(وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ)

(و) الحال أن (وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ)

الذين:-لا يستطيعون حيلة و لا يهتدون سبيلا و مع هذا فقد نالهم أعظم الظلم من أعدائهم

(يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ)أى مكة كقوله (وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ)محمد: ١٣

فهم يدعون الله أن يخرجهم من هذه القرى (ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا)

1- لأنفسهم بالكفر و الشرك

2-و للمؤمنين بالأذى و الصد عن سبيل الله و منعهم من الدعوة لدينهم و الهجرة.

(و)هم يدعون(وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا)يستنقذهم من هذه القرية الظالم أهلها

فصار جهادكم على هذا الوجه من باب:-

1-القتال2- و الذب عن عيلاتكم و أولادكم و محارمكم لا من باب الجهاد الذي هو الطمع في الكفار فإنه و إن كان فيه فضل عظيم و يلام المتخلف عنه أعظم اللوم فالجهاد الذى فيه استنقاذ المستضعفين منكم أعظم أجرًا و أكبر فائدة بحيث يكون من باب دفع الأعداء75

(ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ)هذا إخبار من الله بأن المؤمنين يقاتلون فى سبيله

(وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ)هو الشيطان.

في ضمن ذلك عدة فوائـد:-

1-أنه بحسب إيمان العبد يكون جهاده في سبيل الله و إخلاصه و متابعته.

فالجهاد فى سبيل الله من آثار الإيمان و مقتضياته و لوازمه كما أن القتال فى سبيل الطاغوت من شُعَبِ الكفر و مقتضياته.

2-أن الذى يقاتل فى سبيل الله ينبغي له و يحسن منه من:-الصبر و الجلد ما لا يقوم به غيره

فإذا كان أولياء الشيطان يصبرون و يقاتلون و هم على باطل فأهل الحق أولى بذلك كما قال تعالى فى هذا المعنى:(إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ)الآية.

3-أن الذى يقاتل فى سبيل الله معتمد على ركن وثيق و هو الحق و التوكل على الله.

فصاحب القوة و الركن الوثيق يطلب منه من:-الصبر و الثبات و النشاط ما لا يطلب ممن يقاتل عن الباطل الذي لا حقيقة له و لا عاقبة حميدة.

فلهذا قال تعالى:-(فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا)

و الكيد:-هو سلوك الطرق الخفية في ضرر العدو فالشيطان و إن بلغ مَكْرُهُ مهما بلغ فإنه فى غاية الضعف الذي لا يقوم لأدنى شيء من الحق و لا لكيد الله لعباده المؤمنين76

(أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ)

*الصحيح المسند من أسباب النزول:النسائى

3086 -عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ وَأَصْحَابًا لَهُ أَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ بِمَكَّةَ فَقَالُوا:- يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي عِزٍّ وَنَحْنُ مُشْرِكُونَ فَلَمَّا آمَنَّا صِرْنَا أَذِلَّةً فَقَالَ:«إِنِّي أُمِرْتُ بِالْعَفْوِ فَلَا تُقَاتِلُوا» فَلَمَّا حَوَّلَنَا اللَّهُ إِلَى الْمَدِينَةِ أَمَرَنَا بِالْقِتَالِ فَكَفُّوا فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ} [النساء: 77]

*كان المسلمون – إذ كانوا بمكة- مأمورين بالصلاة و الزكاة أى:-مواساة الفقراء لا الزكاة المعروفة ذات النصب و الشروط فإنها لم تفرض إلا بالمدينة

و لم يؤمروا بجهاد الأعداء لعدة فوائد: –

1-أن من حكمة البارى تعالى أن يشرع لعباده الشرائع على وجه لا يشق عليهم و يبدأ بالأهم فالأهم و الأسهل فالأسهل.

2-أنه لو فرض عليهم القتال –مع قلة عَدَدِهِم و عُدَدِهِم و كثرة أعدائهم- لأدى ذلك إلى اضمحلال الإسلام

فرُوْعِي جانب المصلحة العظمى على ما دونها و لغير ذلك من الحِكَم.

و كان بعض المؤمنين يودون أن لو فرض عليهم القتال فى تلك الحال غير اللائق فيها ذلك

و إنما اللائق فيها القيام بما أمروا به في ذلك الوقت من :–التوحيد و الصلاة و الزكاة و نحو ذلك

كما قال تعالى:–(وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا)

(فَلَمَّا كُتِبَ)فرض(عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ)جماعة قد تغير حالهم(مِّنْهُمْ)فأصبحوا(يَخْشَوْنَ)يخافون

(ٱلنَّاسَ)و يرهبونهم(كَخَشْيَةِ)كخوفهم من(ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً)و يعلنون عما اعتراهم من شدة الخوف

*كقوله(وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ) محمد: ٢٠

*فلما هاجروا إلى المدينة و قوى الإسلام كُتب عليهم القتال فى وقته المناسب لذلك فقال فريق من الذين

يستعجلون القتال قبل ذلك خوفا من الناس و ضعفا و خورا:–

(وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ) ؟و فى هذا تضجرهم و اعتراضهم على الله

و كان الذى ينبغي لهم ضد هذه الحال:–1–التسليم لأمر الله 2–و الصبر على أوامره

فعكسوا الأمر المطلوب منهم فقالوا:–

(لَوْلَآ)هلا(أَخَّرْتَنَآ)فرض القتال(إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ)مدة متأخرة عن الوقت الحاضر

و هذه الحال كثيرًا ما تعرض لمن هو غير رزين و استعجل فى الأمور قبل وقتها فالغالب عليه أنه لا يصبر عليها

وقت حلولها و لا ينوء بحملها بل يكون قليل الصبر.

ثم إن الله وعظهم عن هذه الحال التي فيها التخلف عن القتال فقال:–

(قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا)التمتع بلذات الدنيا و راحتها(قَلِيلٌ)

فتحمل الأثقال فى طاعة الله في المدة القصيرة مما يسهل على النفوس و يخف عليها لأنها إذا علمت أن

المشقة التي تنالها لا يطول لبثها هان عليها ذلك

فكيف إذا وازنت بين الدنيا و الآخرة و أن الآخرة خير منها فى ذاتها و لذاتها و زمانها فذاتها–كما ذكر النبى

ﷺفى الحديث الثابت عنه–« أن موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا و ما فيها »

و لذاتها صافية عن المكدرات بل كل ما خطر بالبال أو دار فى الفكر من تصور لذة فلذة الجنة فوق ذلك

كما قال تعالى:-(فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ)

و قال الله على لسان نبيهﷺ:–

«أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر »

و أما لذات الدنيا فإنها:–مشوبة بأنواع التنغيص الذي لو قوبل بين لذاتها و ما يقترن بها من أنواع الآلام

و الهموم و الغموم لم يكن لذلك نسبة بوجه من الوجوه.

و أما زمانها فإن الدنيا منقضية و عمر الإنسان بالنسبة إلى الدنيا شيء يسير

و أما الآخرة فإنها دائمة النعيم و أهلها خالدون فيها

فإذا فكّر العاقل في هاتين الدارين و تصور حقيقتهما حق التصور عرف ما هو أحق بالإيثار و السعي له و الاجتهاد لطلبه

و لهذا قال: (وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ)الشرك و سائر المحرمات.

(وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا)ما يفتل من وسخ اليد-أو- شق النواة

*فسعيكم للدار الآخرة ستجدونه كاملا موفرًا غير منقوص منه شيئًا77

ثم أخبر أنه لا يغنى حذر عن قدر و أن القاعد لا يدفع عنه قعوده شيئًا فقال:—

(أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ)فى أى زمان و أى مكان.

(وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ)قصور(مُّشَيَّدَةٖۗ) منيعة و منازل رفيعة و كل هذا حث على الجهاد فى سبيل الله :—

تارة بالترغيب فى فضله و ثوابه

و تارة بالترهيب من عقوبة تركه

و تارة بالإخبار أنه لا ينفع القاعدين قعودُهم

و تارة بتسهيل الطريق فى ذلك و قصرها.

يخبر تعالى عن الذين لا يعلمون المعرضين عما جاءت به الرسل المعارضين لهم أنهم(وَإِن تُصِبۡهُمۡ)إذا جاءتهم

(حَسَنَةٞ)خصب و كثرة أموال و توفر أولاد و صحة(يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ)

مِنْ قِبَلِكَ وَ بِسَبَبِ اتِّبَاعِنَا لَكَ وَ اقْتِدَائِنَا بِدِينِكَ. كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ:-

{فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ[الْأَعْرَاف: 131]

وَ كَمَا قَالَ تَعَالَى:

{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ[الْحَجّ: 11]

وَ هَكَذَا قَالَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ ظَاهِرًا وَ هُمْ كَارِهُونَ لَهُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ

وَ لِهَذَا إِذَا أَصَابَهُمْ شَرٌّ إِنَّمَا يَسْنُدُونَهُ إِلَى اتِّبَاعِهِمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ

(وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ)جدب و فقر و مرض و موت أولاد و أحباب

(يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ)بسبب ما جئتنا به يا محمد تطيروا برسول الله ﷺكما تطير أمثالهم برسل الله

كما أخبر الله عن قوم فرعون أنهم قالوا لموسى:—

{فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ

و قال قوم صالح: (قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ)

و قال قوم ياسين لرسلهم:-(إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ) الآية.

فلما تشابهت قلوبهم بالكفر تشابهت أقوالهم و أعمالهم.

و هكذا كل من نسب حصول الشر أو زوال الخير لما جاءت به الرسل أو لبعضه فهو داخل في هذا الذم الوخيم.

قال الله فى جوابهم:-(قُلْ كُلٌّ)من الحسنة و السيئة و الخير و الشر.

(مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ)بقضائه و قدره و خلقه.

(فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ)الصادر منهم تلك المقالة الباطلة.

(لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا)

1-أى: لا يفهمون حديثا بالكلية و لا يقربون من فهمه

2-أو لا يفهمون منه إلا فهمًا ضعيفًا و على كل فهو ذم لهم و توبيخ على عدم فهمهم و فقههم عن الله و عن رسوله و ذلك بسبب كفرهم و إعراضهم

*و فى ضمن ذلك :-

1-مدْح من يفهم عن الله و عن رسوله

2-و الحث على ذلك و على الأسباب المعينة على ذلك من الإقبال على كلامهما و تدبره و سلوك الطرق الموصلة إليه.

*فلو فقهوا عن الله:-

1-لعلموا أن الخير و الشر و الحسنات و السيئات كلها بقضاء الله و قدره لا يخرج منها شيء عن ذلك.

2-و أن الرسل عليهم الصلاة و السلام لا يكونون سببا لشر يحدث هم و لا ما جاءوا به لأنهم بعثوا بصلاح الدنيا و الآخرة و الدين78

ثم قال تعالى:-(مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ)أى: فى الدين و الدنيا

(فَمِنَ ٱللَّهِ)هو الذى مَنَّ بها و يسرها بتيسير أسبابها.

(وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ)فى الدين و الدنيا

(فَمِن نَّفْسِكَ)أى بذنوبك و كسبك و ما يعفو الله عنه أكثر.

فالله تعالى قد فتح لعباده أبواب إحسانه و أمرهم بالدخول لبره و فضله

*و أخبرهم أن المعاصى مانعة من فضله فإذا فعلها العبد فلا يلومن إلا نفسه فإنه المانع لنفسه عن وصول فضل الله و بره.

*كقوله(وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ) الشورى: ٣٠

*البخارى 5641 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ‏: عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:-

«مَا يُصِيبُ المُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ(تعب) وَ لَاوَصَبٍ(مرض)وَ لاَ هَمٍّ(كره لما يتوقعه من سوء)وَ لاَ حُزْنٍ(أسى على ما حصل له من مكروه فى الماضى)وَ لاَ أَذًى(من تعدي غيره عليه)وَ لاَ غَمٍّ(ما يضيق القلب والنفس) حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ(ذنوبه)»

*ثم أخبر عن عموم رسالة رسوله محمد ﷺفقال:-

(وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗا)على أنك رسول الله حقا بما أيدك بـ:-

1-نصره 2-و المعجزات الباهرة و البراهين الساطعة

فهي أكبر شهادة على الإطلاق كما قال تعالى:-(قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ)

*فإذا علم أن الله تعالى كامل العلم تام القدرة عظيم الحكمة و قد أيد الله رسوله بما أيده و نصره نصرا عظيما تيقن بذلك أنه رسول الله و إلا فلو تقول عليه بعض الأقاويل لأخذ منه باليمين ثم لقطع منه الوتين.

(وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا)عَلَى أَنَّهُ أَرْسَلَكَ وَ هُوَ شَهِيدٌ أَيْضًا بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُمْ وَ عَالِمٌ بِمَا تُبْلِغُهُمْ إِيَّاهُ وَ بِمَا يردون عليك من الحق كفرا و عنادًا٧٩

مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴿٨٠﴾
وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ
فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ
لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ
وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ
وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ
وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴿٨٤﴾
مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾

(مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ)أى: كل مَنْ أطاع رسول الله فى أوامره و نواهيه(فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ)تعالى لكونه لا يأمر و لا ينهى إلا بأمر الله و شرعه و وحيه و تنزيله

و في هذا عصمة الرسول ﷺلأن الله أمر بطاعته مطلقا

فلولا أنه معصوم فى كل ما يُبَلِّغ عن الله لم يأمر بطاعته مطلقا و يمدح على ذلك.و هذا من الحقوق المشتركة

فإن الحقوق ثلاثة:-

1-حق لله تعالى لا يكون لأحد من الخلق و هو:-عبادة الله و الرغبة إليه و توابع ذلك.

2-و قسم مختص بالرسول و هو التعزير و التوقير و النصرة

3-و قسم مشترك و هو الإيمان بالله و رسوله و محبتهما و طاعتهما كما جمع الله بين هذه الحقوق فى قوله:

(لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)

فمَنْ أطاع الرسول فقد أطاع الله و له من الثواب و الخير ما رتب على طاعة الله

(وَمَن تَوَلَّىٰ)عن طاعة الله و رسوله فإنه لا يضر إلا نفسه و لا يضر الله شيئًا

(فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا)تحفظ أعمالهم و أحوالهم بل أرسلناك مبلغا و مبينا و ناصحا

و قد أديت وظيفتك و وجب أجرك على الله سواء اهتدوا أم لم يهتدوا.

كما قال تعالى: (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ* لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ) الآيات

-و لا بد أن تكون طاعة الله و رسوله ظاهرًا و باطنًا فى الحضرة و المغيب

–فأما مَنْ يظهر فى:– الحضرة و الطاعة و الالتزام

فإذا خلا بنفسه أو أبناء جنسه ترك الطاعة و أقبل على ضدها فإن الطاعة التى أظهرها غير نافعة و لا مفيدة

و قد أشبه من قال الله فيهم كقوله (وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ)النجم

*البخارى 2957 –قال النبىﷺ «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَ مَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ
وَ مَنْ يُطِعِ الأَمِيرَ(أمير السرية أو ولاة الأمور مطلقا)فَقَدْ أَطَاعَنِي وَ مَنْ يَعْصِ الأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي

وَ إِنَّمَا الإِمَامُ (الحاكم الأعلى القائم بشؤون الأمة) جُنَّةٌ(سترة ووقاية لأنه يمنع العدو من أذى المسلمين ويمنع الناس من أذى بعضهم بعضا) يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ

(يقاتل معه الكفار والبغاة وسائر أهل الفساد) وَ يُتَّقَى بِهِ(يحتمى به ويتقوى وقيل يرجع إليه فى الرأى والتدبير)

فَإِنْ أَمَرَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَ عَدَلَ فَإِنَّ لَهُ بِذَلِكَ أَجْرًا

وَ إِنْ قَالَ بِغَيْرِهِ(أمر بغير تقوى الله تعالى وعدله) فَإِنَّ عَلَيْهِ مِنْهُ(فإن الوبال الحاصل منه عليه لا على المأمور)» 80

(وَيَقُولُونَ)أى المنافقون يظهرون الـ(طَاعَةٞ)إذا كانوا عندك

(فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ)خرجوا و خلوا فى حالة لا يطلع فيها عليهم

(بَيَّتَ)دبر(طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ)غير طاعتك و لا ثَمَّ إلا المعصية

و فى قوله (بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ)دليل على أن:–

الأمر الذى استقروا عليه غير الطاعة لأن التبييت تدبير الأمر ليلا على وجه يستقر عليه الرأى ثم توعدهم على

ما فعلوا فقال:–(وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ)يحفظه عليهم و سيجازيهم عليه أتم الجزاء ففيه وعيد لهم

*يَعْلَمُهُ وَ يَكْتُبُهُ عَلَيْهِمْ بِمَا يَأْمُرُ بِهِ حَفَظَتَهُ الْكَاتِبِينَ الَّذِينَ هُمْ مُوَكَّلُونَ بِالْعِبَادِ. يَعْلَمُونَ مَا يَفْعَلُونَ.
وَ الْمَعْنَى فِي هَذَا التَّهْدِيدِ:- أَنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ بِأَنَّهُ عَالِمٌ بِمَا يُضْمِرُونَهُ وَيُسِرُّونَهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ
وَ مَا يَتَّفِقُونَ عَلَيْهِ لَيْلًا مِنْ مُخَالَفَةِ الرَّسُولِ وَ عِصْيَانِهِ وَ إِنْ كَانُوا قَدْ أَظْهَرُوا لَهُ الطَّاعَةَ وَ الْمُوَافَقَةَ وَ
سَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ
بِالْمُؤْمِنِينَ } [النُّورِ: 47]

(فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ)

*ثم أمر رسوله بمقابلتهم بالإعراض و عدم التعنيف فإنهم لا يضرونه شيئا إذا توكل على الله و استعان به فى
نصر دينه و إقامة شرعه

(وَكَفَىٰ)و حسبك (بِٱللَّهِ وَكِيلًا)ولياً و ناصرًا 81

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ)يأمر الله عِبَادَهُ بِتَدَبُّرِ الْقُرْآنِ لِأَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ فَهُوَ حَقٌّ مِنْ حَقٍّ
وَ لِهَذَا قَالَ تَعَالَى:{أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [مُحَمَّدٍ: 24]ثُمَّ قَالَ: {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ}
*أحمد 6702 - عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: -
لَقَدْ جَلَسْتُ أَنَا وَ أَخِي مَجْلِسًا مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ:-

أَقْبَلْتُ أَنَا وَ أَخِي وَ إِذَا مَشْيَخَةٌ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جُلُوسٌ عِنْدَ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِهِ فَكَرِهْنَا أَنْ نُفَرِّقَ بَيْنَهُمْ فَجَلَسْنَا حَجْرَةً إِذْ ذَكَرُوا آيَةً مِنَ الْقُرْآنِ فَتَمَارَوْا فِيهَا حَتَّى ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمْ

فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُغْضَبًا قَدِ احْمَرَّ وَجْهُهُ يَرْمِيهِمْ بِالتُّرَابِ وَ يَقُولُ:-

«مَهْلًا يَا قَوْمِ بِهَذَا أُهْلِكَتِ الْأُمَمُ مِنْ قَبْلِكُمْ بِاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ وَ ضَرْبِهِمُ الْكُتُبَ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ

إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ يُكَذِّبُ بَعْضُهُ بَعْضًا بَلْ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا بِهِ

وَ مَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ»

*يأمر تعالى بتدبر كتابه و هو:-

1-التأمل فى معانيه الْمُحْكَمَةِ وَ أَلْفَاظِهِ الْبَلِيغَةِ

2-و تحديق الفكر فيه و فى مبادئه و عواقبه

3-و لوازم ذلك فإن تدبر كتاب الله مفتاح للعلوم و المعارف

4-وَ نَاهِيًا لَهُمْ عَنِ الْإِعْرَاضِ عَنْهُ

و بـه:-

1-يستنتج كل خير

2-و تستخرج منه جميع العلوم

3-و به يزداد الإيمان في القلب و ترسخ شجرته.

فإنه يُعرِّف بـــه:-

1-الرب المعبود و ما له من صفات الكمال و ما ينزه عنه من سمات النقص

2-و يعرِّف الطريق الموصلة إليه و صفة أهلها و ما لهم عند القدوم عليه

3-و يعرِّف العدو الذى هو العدو على الحقيقة و الطريق الموصلة إلى العذاب و صفة أهلها و ما لهم عند وجود أسباب العقاب.

*و كلما ازداد العبد تأملا فيه ازداد علما و عملا و بصيرة لذلك أمر الله بذلك و حث عليه و أخبر أنه هو المقصود بإنزال القرآن كما قال تعالى:(كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ)

و قال تعالى:-(أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)

4-و من فوائد التدبر لكتـاب الله: -

أنه بذلك يصل العبد إلى درجة اليقين و العلم بأنه كلام الله لأنه يراه يصدق بعضه بعضا و يوافق بعضه بعضا.

فترى الحكم والقصة والإخبارات تعاد فى القرآن فى عدة مواضع كلها متوافقة متصادقة لا ينقض بعضها بعضا فبذلك يُعلم كمال القرآن و أنه من عند من أحاط علمه بجميع الأمور فلذلك قال تعالى:-

(وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا)اضْطِرَابًا وَ تَضَادًّا (كَثِيرًا)أَيْ:-وَ هَذَا سَالِمٌ مِنَ الِاخْتِلَافِ فلما كان من عند الله لم يكن فيه اختلاف أصلا.

*لَوْ كَانَ مُفْتَعَلًا مُخْتَلَقًا كَمَا يَقُولُهُ مَنْ يَقُولُهُ مِنْ جَهَلَةِ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُنَافِقِينَ فِي بَوَاطِنِهِمْ
*فَهُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى مخبرا عن الراسخين في العلم حَيْثُ قَالُوا:{آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا} [آل عمران:7]
أَيْ: -مُحْكَمُهُ وَ مُتَشَابِهُهُ حَقٌّ فَلِهَذَا رَدُّوا الْمُتَشَابِهَ إِلَى الْمُحْكَمِ فَاهْتَدَوْا وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ رَدُّوا الْمُحْكَمَ إِلَى الْمُتَشَابِهِ فغووا وَ لِهَذَا مَدَحَ تَعَالَى الرَّاسِخِينَ وَ ذَمَّ الزَّائِغِينَ(٨٢)

(وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ)

*الصحيح المسند من أسباب النزول:قال الإمام مسلم عن عمر بن الخطاب قال:-
لما اعتزل رسول الله ﷺنساءه قال:-دخلت المسجد فإذا الناس ينكتون بالحصى و يقولون:-
طلق رسول الله نساءه و ذلك قبل أن يؤمرن بالحجاب.قال عمر: فقلت لأعلمن ذلك اليوم فذكر الحديث
وفيه بعد استئذانه على رسول الله ﷺفقلت:-أطلقتهن يا رسول الله قال: "لا" .
قلت: يا رسول الله إني دخلت المسجد و الناس ينكتون بالحصى يقولون طلق رسول الله ﷺنساءه
فأنزل فأخبرهم أنك لم تطلقهن قال: "نعم إن شئت". فذكر الحديث
و فيه فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي لم يطلق رسول الله نساءه
و نزلت الآية {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ
و كنت أنا استنبطت ذلك و أنزل الله آية التخيير.

*هذا تأديب من الله لعباده عن فعلهم هذا غير اللائق.و أنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة
و المصالح العامة ما يتعلق بالأمن و سرور المؤمنين أو بالخوف الذي فيه مصيبة عليهم أن:–
يتثبتوا و لا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر

(وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ)بل يردونه إلى الرسول و إلى أولي الأمر منهم أهلِ الرأى و العلم
و النصح و العقل و الرزانة الذين يعرفون الأمور و يعرفون المصالح و ضدها.
*فإن رأوا فى إذاعته مصلحة و نشاطا للمؤمنين و سرورا لهم و تحرزا من أعدائهم ← فعلوا ذلك.
*و إن رأوا أنه ليس فيه مصلحة أو فيه مصلحة و لكن مضرته تزيد على مصلحته ← لم يذيعوه

و لهذا قال:–(لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ)يَسْتَخْرِجُونَهُ وَ يَسْتَعْلِمُونَهُ(مِنۡهُمۡۗ)مِنْ مَعَادِنِهِ يُقَالُ:-
اسْتَنْبَطَ الرَّجُلُ الْعَيْنَ إِذَا حَفَرَهَا وَ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ قُعُورِهَا
أي: يستخرجونه بفكرهم و آرائهم السديدة و علومهم الرشيدة.
*و فى هذا دليل لقاعدة أدبية و هي أنه إذا حصل بحث في أمر من الأمور ينبغى أن يولَّى مَنْ هو أهل لذلك
و يجعل إلى أهله و لا يتقدم بين أيديهم فإنه أقرب إلى الصواب و أحرى للسلامة من الخطأ.
و فيه النهى عن العجلة و التسرع لنشر الأمور من حين سماعها و الأمر بالتأمل قبل الكلام و النظر فيه
هل هو مصلحة فيُقْدِم عليه الإنسان؟ أم لا فيحجم عنه؟

ثم قال تعالى:–(وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ)فى توفيقكم و تأديبكم و تعليمكم ما لم تكونوا تعلمون

(لَا تَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا)لأن الإنسان بطبعه ظالم جاهل فلا تأمره نفسه إلا بالشر.

فإذا لجأ إلى ربه و اعتصم به و اجتهد في ذلك:-

1-لطف به ربه

2-و وفقه لكل خير

3-و عصمه من الشيطان الرجيم ﴿٨٣﴾

*هذه الحالة أفضل أحوال العبد أن يجتهد في نفسه على امتثال أمر الله من الجهاد و غيره و يحرض غيره عليه و قد يعدم في العبد الأمران أو أحدهما فلهذا قال لرسوله:-

(فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَ)لا تلزم فعل غيرك و لا تؤاخذ به

أي: ليس لك قدرة على غير نفسك فلن تكلف بفعل غيرك.

(وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ) على القتال

و هذا يشمل كل أمر يحصل به :-

1-نشاط المؤمنين

2-و قوة قلوبهم من:-

تقويتهم و الإخبار بضعف الأعداء و فشلهم و بما أُعد للمقاتلين من الثواب و ما على المتخلفين من العقاب فهذا و أمثاله كله يدخل في التحريض على القتال.

*مسلم1902قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ»
قَالَ: - يَقُولُ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ:-يَا رَسُولَ اللهِ جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَ الْأَرْضُ؟
قَالَ: «نَعَمْ» قَالَ: بَخٍ بَخٍ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟»
قَالَ: لَا وَ اللهِ يَا رَسُولَ اللهِ إِلَّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا
قَالَ: «فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا» فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِه فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ ثُمَّ قَالَ:-
لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ قَالَ:-فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ

*البخارى2790 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
«مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ بِرَسُولِهِ وَ أَقَامَ الصَّلَاةَ وَ صَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلاَ نُبَشِّرُ النَّاسَ؟
قَالَ: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَ الأَرْضِ
فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ(هو البستان الذى يجمع ما فى البساتين كلها من شجر وزهر و نبات)فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ(أفضلها وخيرها)
وَ أَعْلَى الجَنَّةِ - أُرَاهُ(أظنه وهذا من كلام يحيى بن صالح شيخ البخارى أى أظنه قال)- فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ
وَ مِنْهُ تَفَجَّرُ(تنشق) أَنْهَارُ الجَنَّةِ» قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ فُلَيْحٍ عَنْ أَبِيهِ: وَ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ

(عَسَى)لعل(ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ)يمنع بك و بهم (بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ)و شدتهم

*أى: بقتالكم فى سبيل الله و تحريض بعضكم بعضًا.

(وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا)قوة و عزة

(وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا)بالمذنب فى نفسه و تنكيلا لغيره و أعظم عقوبة للكافرين.

*فلو شاء تعالى لانتصر من الكفار بقوته و لم يجعل لهم باقية و لكن من حكمته:–

1–يبلو بعض عباده ببعض ليقوم سوق الجهاد

2–و يحصل الإيمان النافع (إيمان الاختيار) لا (إيمان الاضطرار و القهر) الذى لا يفيد شيئا(٨٤)

*كقوله(ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ محمد: ٤

(مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ)المراد بالشفاعة هنا:–المعاونة على أمر من الأمور

*فمن شفع غيره و قام معه على أمر من أمور الخير– و منه الشفاعة للمظلومين لمن ظلمهم–

(يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ)

من الثواب–نصيب من شفاعته بحسب سعيه و عمله و نفعه و لا ينقص من أجر الأصيل و المباشر شيء

(وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ)و مَنْ عاون غيره على أمر من الشر(يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ)نصيب(مِّنۡهَا)من الإثم بحسب:–

ما قام به و عاون عليه.

ففى هذا الحث العظيم على :–

1–التعاون على البر و التقوى

2–و الزجر العظيم عن التعاون على الإثم و العدوان

و قرر ذلك بقوله:–(وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا)شاهدًا حفيظًا حسيبًا على هذه الأعمال فيجازى كُلا ما يستحقه.

*البخارى1432–عن أَبِي بُرْدَةَ بْنُ أَبِي مُوسَى عَنْ أَبِيهِ ﵁قَالَ:-كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺإِذَا جَاءَهُ السَّائِلُ أَوْ طُلِبَتْ إِلَيْهِ حَاجَةٌ قَالَ:-«اشْفَعُوا(توسلوا في قضاء حاجة من طلب أو سأل)تُؤْجَرُوا(يكن لكم مثل أجر قضاء حاجته)

وَ يَقْضِى اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺمَا شَاءَ»(٨٥)

الشفاعة الحسنة و رد التحية 85-86

(وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ) التحيـة هى:–اللفظ الصادر من أحد المتلاقيين على وجه الإكرام و الدعاء

و ما يقترن بذلك اللفظ من البشاشة و نحوها.

*و أعلى أنواع التحية ما ورد به الشرع من السلام ابتداء و ردًّا.

(فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ)

فأمر تعالى المؤمنين أنهم إذا حُيّوا بأى تحية كانت أن يردوها بأحسن منها لفظا و بشاشة أو مثلها فى ذلك.

*و مفهوم ذلك النهى عن عدم الرد بالكلية أو ردها بدونها.

*و يؤخذ من الآية الكريمة:–الحث على ابتداء السلام و التحية من وجهين:–

أحدهما:–أن الله أمر بردها بأحسن منها أو مثلها و ذلك يستلزم أن التحية مطلوبة شرعًا.

الثاني:ما يستفاد من أفعل التفضيل و هو « أحسن » الدال على مشاركة التحية و ردها بالحسن كما هو الأصل في ذلك.

*و يستثنى من عموم الآية الكريمة:–

1–من حيًّا بحال غير مأمور بها ك «على مشتغل بقراءة أو استماع خطبة أو مصلٍ و نحو ذلك»

فإنه لا يطلب إجابة تحيته

2–و كذلك يستثنى من ذلك من أمر الشارع بهجره و عدم تحيته و هو العاصي غير التائب الذي يرتدع بالهجر فإنه يهجر و لا يُحيّا و لا تُرد تحيته و ذلك لمعارضة المصلحة الكبرى.

*و يدخل في رد التحية كل تحية اعتادها الناس و هي غير محظورة شرعًا فإنه مأمور بردّها و بأحسن منها

*فَأَمَّا أَهْلُ الذِّمَّةِ فلا يُبْدؤون بِالسَّلَامِ وَ لَا يُزَادُونَ بَلْ يُرَدُّ عَلَيْهِمْ بِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ

*البخاري2935 -عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:-أَنَّ اليَهُودَ دَخَلُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا:-

السَّامُ (الموت)عَلَيْكَ فَلَعَنْتُهُمْ(قالت عائشة فلعنت هؤلاء اليهود بسبب قولهم) فَقَالَ:«مَا لَكِ»(أي شيء حصل لك حتى لعنتهم)

قُلْتُ: أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ: «فَلَمْ تَسْمَعِي مَا قُلْتُ وَ عَلَيْكُمْ»

*أبي داود 5205 - عَنْ سُهَيْلِ بْنِ أَبِي صَالِحٍ قَالَ: -

خَرَجْتُ مَعَ أَبِي إِلَى الشَّامِ فَجَعَلُوا يَمُرُّونَ بِصَوَامِعَ فِيهَا نَصَارَى فَيُسَلِّمُونَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ أَبِي لَا تَبْدَءُوهُمْ بِالسَّلَامِ فَإِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ حَدَّثَنَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ:-

«لَا تَبْدَءُوهُمْ بِالسَّلَامِ وَ إِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فِي الطَّرِيقِ فَاضْطَرُّوهُمْ إِلَى أَضْيَقِ الطَّرِيقِ»

*ثم أوعد تعالى و توعد على فعل الحسنات و السيئات بقوله: –

(إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا)فيحفظ على العباد أعمالهم حسنها و سيئها صغيرها و كبيرها ثم يجازيهم بما اقتضاه فضله و عدله و حكمه المحمود﴿٨٦﴾

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾
۞فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ
وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ
فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ
وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ
حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ
فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ
وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ
فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿٩١﴾

كيفية معاملة المنافقين 87-91

(ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ) يخبر تعالى عن :-

1-انفراده بالوحدانية 2-و أنه لا معبود و لا مألوه إلا هو لـــ:-

كماله فى ذاته و أوصافه و لكونه المنفرد بالخلق و التدبير و النعم الظاهرة و الباطنة.

و ذلك يستلزم الأمر بعبادته والتقرب إليه بجميع أنواع العبودية لكونه المستحق لذلك وحده و المجازى للعباد بما قاموا به من عبوديته أو تركوه منها و لذلك أقسم على وقوع محل الجزاء و هو يوم القيامة فقال:-

(لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ)أى: أولكم و آخِركم فى مقام واحد.

(إِلَىٰ)فى(يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ)لا شك و لا شبهة(فِيهِ) بوجه من الوجوه بالدليل العقلى و الدليل السمعى

فالدليل العقلي:-

ما نشاهده من إحياء الأرض بعد موتها و من وجود النشأة الأولى التى وقوع الثانية أَوْلى منها بالإمكان و من الحكمة التى تجزم بأن الله لم يخلق خلقه عبثًا يحيون ثم يموتون.

و أما الدليل السمعي:-فهو إخبار أصدق الصادقين بذلك بل إقسامه عليه

و لهذا قال: (وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا)

لَا أَحَدَ أَصْدَقُ مِنْهُ فِي حَدِيثِهِ وَ خَبَرِهِ وَ وَعْدِهِ وَ وَعِيدِهِ فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَ لَا رَبَّ سِوَاهُ.

*كذلك أمر رسوله ﷺأن يقسم عليه فى غير موضع من القرآن كقوله تعالى:-

(زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ

و في قوله:-(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا) (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلا):-

إخبار بأن حديثه و أخباره و أقواله فى أعلى مراتب الصدق بل أعلاها.

فكل ما قيل في العقائد و العلوم و الأعمال مما يناقض ما أخبر الله به فهو باطل لمناقضته للخبر الصادق اليقين فلا يمكن أن يكون حقًّا﴿٨٧﴾

﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾

عندما بلغتُ الثامنة عشرة من عمري كُنت فتاة متدينة، وتقدم لخطبتي حينها شاب غير متدين، غير أن الجميع كان يُثني على أخلاقه واستقامة سلوكه، وكُنت مترددة جدا في قبوله؛ بل كنت أقرب إلى الرفض، ومع أن والدي قد سأل عنه، ووجد فيه الصفات المناسبة، إلا أن ذلك لم ينطبق على أمنياتي التي كُنت أنسُجها حول زوج المستقبل، والذي كُنت أريده صالحًا طالبًا للعلم.

وذات يوم؛ جاءت إليّ أمي تطلب مني الرد النهائي، ونظرت إليّ وهي تقول بحنان: يا بنيتي؛ لقد استخرتِ الله وأنتِ فتاة طيبة، والله تعالى يقول: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النور:٢٦](٢)، فلما سمعت الآية وقعت من نفسي موقعًا عجيبًا، وامتلأ قلبي يقينًا بأنَّ الله لن يُخيِّب أملي في أن يكون هذا الشاب هو الأنسب لي، فتوكلتُ على الله ووافقتُ على الزواج منه.

واليوم؛ وبعد أكثر من ثلاثين سنة قضيتها في زواج ناجح بحمد الله؛ أتذكَّر هذه الآية وأقول: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧](١).

(فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ)

المراد بالمنافقين المذكورين فى هذه الآيات:-"المنافقون المظهرون إسلامهم"

و لم يهاجروا مع كفرهم و كان قد وقع بين الصحابة فيهم اشتباه:-

1-فبعضهم تحرج عن قتالهم و قطع موالاتهم بسبب ما أظهروه من الإيمان

2-و بعضهم علم أحوالهم بقرائن أفعالهم فحكم بكفرهم.

(وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم)أوقعهم فى الخطأ و أهلكهم بسبب عصيانهم و مخالفتهم

*و أركسه قلبه و نسكه أى جعل أعلاه أسفله-ردهم و أوقعهم فى الخطأ

(بِمَا كَسَبُوٓا۟)بسبب عصيانهم و مخالفتهم الرسول و اتباعهم الباطل

(أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا)لا طريق له إلى الهدى و لا مخلص له إليه

*جاء فى الصحيح المسند من أسباب النزول:البخارى4050 - عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ﷺقَالَ:-
لَمَّا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺإِلَى أُحُدٍ رَجَعَ نَاسٌ مِمَّنْ خَرَجَ مَعَهُ وَ كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺفِرْقَتَيْنِ:-
1-فِرْقَةً تَقُولُ: نُقَاتِلُهُمْ
2-وَ فِرْقَةً تَقُولُ: لاَ نُقَاتِلُهُمْ فَنَزَلَتْ{فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا} [النساء: 88]
و قَالَ:«إِنَّهَا طَيْبَةُ تَنْفِى الذُّنُوبَ(تظهر من يرتكب فيها الذنوب وتميزهم)كَمَا تَنْفِى النَّارُ خَبَثَ الفِضَّةِ»88

(وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ)هُمْ يَوَدُّونَ لَكُمُ الضَّلَالَةَ(فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ)
لِتَسْتَوُوا أَنْتُمْ وَ إِيَّاهُمْ فِيهَا وَ مَا ذَاكَ إِلَّا لِشِدَّةِ عَدَاوَتِهِمْ وَ بُغْضِهِمْ لَكُمْ
*فأخبرهم الله تعالى أنه لا ينبغى لكم أن تشتبهوا فيهم و لا تشكوا بل أمرهم واضح غير مشكل إنهم منافقون قد تكرر كفرهم و ودوا مع ذلك كفركم و أن تكونوا مثلهم. فإذا تحققتم ذلك منهم

(فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ)و هذا يستلزم عدم محبتهم لأن الولاية فرع المحبة.

و يستلزم أيضا بغضهم و عداوتهم لأن النهى عن الشيء أمر بضده

(حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ)

و هذا الأمر موقت بهجرتهم فإذا هاجروا جرى عليهم ما جرى على المسلمين كما كان النبى ﷺيجرى أحكام الإسلام لكل مَنْ كان معه و هاجر إليه و سواء كان مؤمنا حقيقة أو ظاهر الإيمان.

*ظاهر هذا السياق أن هؤلاء المنافقين هم بمكة و قوله تعالى:-{حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ}:-
لأن الهجرة إلى المدينة تقطع صلاتهم بدار الكفر فيفتر عزمهم و يراجعوا الصدق فى إيمانهم فيؤمنوا
فإن هاجروا ثم تولوا عن الإيمان الصحيح إلى النفاق الكفر فأعلنوا الحرب عليهم

(فَإِن تَوَلَّوۡاْ)و أنهم إن لم يهاجروا و تولوا عنها -و قال آخرون :أظهروا كفرهم

(فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ)فى أى وقت و أى محل كان

و هذا من جملة الأدلة الدالة على نسخ القتال فى الأشهر الحرم كما هو قول جمهور العلماء و المنازعون

يقولون:–هذه نصوص مطلقة محمولة على تقييد التحريم فى الأشهر الحرم(وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا)89

(إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ)

ثم إن الله استثنى من قتال هؤلاء المنافقين ثلاث فِرَق:–فرقتين أمر بتركهم و حتَّم على ذلك

إحداهما: –من يصل إلى قوم بينهم و بين المسلمين عهد و ميثاق بترك القتال فينضم إليهم فيكون له حكمهم في حقن الدم و المال.

*إلا الذين لجؤوا وَ تَحَيَّزُوا إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مُهَادَنَةٌ أَوْ عَقْدُ ذِمَّةٍ فَاجْعَلُوا حُكْمَهُمْ كَحُكْمِهِمْ.
*وَ فِي الْبُخَارِيِّ(2731) فِي قِصَّةِ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ فَكَانَ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي صُلْحِ قُرَيْشٍ وَ عَهْدِهِمْ

وَ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي صُلْحِ مُحَمَّدٍ وَ أَصْحَابِهِ وَعَهْدِهِمْ.

و الفرقة الثانية:–قوم صفتهم(أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ)
ضَيِّقَةٌ صُدُورُهُمْ مُبْغضين أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ وَ لَا يَهُونُ عَلَيْهِمْ أَيْضًا أَنْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ مَعَكُمْ بَلْ هُمْ لَا لَكُمْ وَ لَا عَلَيْكُمْ

*أى:بقوا لا تسمح أنفسهم بقتالكم و لا بقتال قومهم و أحبوا ترك قتال الفريقين فهؤلاء أيضا أمر بتركهم و ذكر الحكمة فى ذلك فى قوله:

(وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ)من لطفه بكم أن كفهم عنكم

فإن الأمور الممكنة ثلاثة أقسـام: –

1–إما أن يكونوا معكم و يقاتلوا أعداءكم و هذا متعذر من هؤلاء فدار الأمر بين قتالكم مع قومهم و بين ترك قتال الفريقين و هو أهون الأمرين عليكم و الله قادر على تسليطهم عليكم فاقبلوا العافية و احمدوا ربكم الذى كف أيديهم عنكم مع التمكن من ذلك.

(فَ)هؤلاء(فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ)المسالمة

(انقادوا اليكم مستسلمين و ليس المراد:ألقوا إليكم تحية الاسلام كذلك قوله(وألقوا إلى الله يومئذ السلم)
أى استسلموا لله يوم القيامة ذالين منقادين لحكمه بخلاف قوله{وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا}
[النساء: 94]فهى تعنى إلقاء التحية أى :قول السلام عليكم)

(فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا)فَلَيْسَ لَكُمْ أَنْ تَقْتُلُوهُمْ مَا دَامَتْ حَالُهُمْ كَذَلِكَ
وَ هَؤُلَاءِ كَالْجَمَاعَةِ الَّذِينَ خَرَجُوا يَوْمَ بَدْرٍ مِنْ بَنِى هَاشِمٍ مَعَ الْمُشْرِكِينَ فَحَضَرُوا الْقِتَالَ وَ هُمْ كَارِهُونَ كَالْعَبَّاسِ وَ نَحْوِهِ وَ لِهَذَا نَهَى النَّبِىُّ ﷺيومئذ عن قتل العباس و عبّر بأسره90

الفرقة الثالثة:–قوم يريدون مصلحة أنفسهم بقطع النظر عن احترامكم و هم الذين قال الله فيهم:–

(سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ)من هؤلاء المنافقين.

(يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ)خوفا منكم

(وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟)أعيدوا(إِلَى ٱلْفِتْنَةِ)موطن الكفر و الكافرين وقعوا فى أسوأ حال

(أُرْكِسُوا۟)انْهَمَكُوا(فِيهَا)

*لا يزالون مقيمين على كفرهم و نفاقهم و كلما عرض لهم عارض من عوارض الفتن أعماهم و نكسهم على رءوسهم و ازداد كفرهم و نفاقهم

*و هؤلاء فى الصورة كالفرقة الثانية و فى الحقيقة مخالفة لها.

*فإن الفرقة الثانية تركوا قتال المؤمنين احترامًا لهم لا خوفا على أنفسهم

*و أما هذه الفرقة فتركوه خوفا لا احتراما بل لو وجدوا فرصة فى قتال المؤمنين فإنهم مستعدون لانتهازها

*فهؤلاء إن لم يتبين منهم و يتضح اتضاحًا عظيمًا اعتزال المؤمنين و ترك قتالهم فإنهم يقاتلون

و لهذا قال:-(فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ)ينصرفوا عنكم

(وَيُلۡقُوٓاْ)يقدموا(إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ)المسالمة و الموادعة-المهادنة و الصلح

(وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ)عن القتال

(فَخُذُوهُمۡ)أُسراء

(وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ)أين(ثَقِفۡتُمُوهُمۡ)لقيتموهم

(وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا)بيِّنا واضحا

أى:حجة بينة واضحة لكونهم معتدين ظالمين لكم تاركين للمسالمة فلا يلوموا إلا أنفسهم.

*هَؤُلَاءِ فِي الصُّورَةِ الظَّاهِرَةِ كَمَنْ تَقَدَّمَهُمْ وَ لَكِنْ نِيَّةُ هَؤُلَاءِ غَيْرُ نِيَّةِ أُولَئِكَ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ مُنَافِقُونَ يُظْهِرُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺوَ لِأَصْحَابِهِ الْإِسْلَامَ لِيَأْمَنُوا بِذَلِكَ عِنْدَهُمْ عَلَى دِمَائِهِمْ وَ أَمْوَالِهِمْ وَ ذَرَارِيهِمْ وَ يُصَانِعُونَ الْكُفَّارَ فِي الْبَاطِنِ فَيَعْبُدُونَ مَعَهُمْ مَا يَعْبُدُونَ لِيَأْمَنُوا بِذَلِكَ عِنْدَهُمْ وَ هُمْ فِي الْبَاطِنِ مَعَ أُولَئِكَ كَمَا قَالَ تَعَالَى:-

{وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} [الْبَقَرَةِ: 14] 91

وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا إِلَّا خَطَـٔٗاۚ وَمَن قَتَلَ مُؤۡمِنًا خَطَـٔٗا فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ
وَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ
فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ
فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ
فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٩٢﴾
وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا
وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ
إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا
تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم
مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٩٤﴾

القتل الخطأ و العمد 92-93

(وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا إِلَّا خَطَـٔٗاۚ)

*هذه الصيغة من صيغ الامتناع أى: يمتنع و يستحيل أن يصدر من مؤمن قتل مؤمن أى:—متعمدا

*البخارى6878 - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ:- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-

"لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ(لا يباح قتله) يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ:-

1- النَّفْسُ بِالنَّفْسِ(تزهق نفس القاتل عمدا بغير حق بمقابلة النفس التي أزهقها)

2-وَ الثَّيِّبُ الزَّانِي(الثيب من سبق له زواج ذكرا أم أنثى فيباح دمه إذا زنى)

3-وَ الْمَارِقُ (لخارج منه خروجا سريعا)مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ(المفارق لجماعة المسلمين)

*ثُمَّ إِذَا وَقَعَ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثِ فَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ آحَادِ الرَّعِيَّةِ أَنْ يَقْتُلَهُ وَ إِنَّمَا ذَلِكَ إِلَى الْإِمَامِ أَوْ نَائِبِهِ.

*و فى هذا الإخبارُ بشدة تحريمه و أنه مناف للإيمان أشد منافاة

*و إنما يصدر ذلك إما من كافر أو من فاسق قد نقص إيمانه نقصا عظيما و يخشى عليه ما هو أكبر من ذلك

فإن الإيمان الصحيح يمنع المؤمن من قتل أخيه الذى قد عقد الله بينه و بينه الأخوة الإيمانية التى من مقتضاها:—

1– محبته و موالاته 2–و إزالة ما يعرض لأخيه من الأذى

و أى أذى أشد من القتل؟ و هذا يصدقه قوله ﷺ:—« لا ترجعوا بعدى كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض »

فَعُلِمَ أن القتل من الكفر العملى و أكبر الكبائر بعد الشرك بالله.

و لما كان قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا﴾

لفظا عاما لجميع الأحوال و أنه لا يصدر منه قتل أخيه بوجه من الوجوه استثنى تعالى قتل الخطأ فقال:–

﴿إِلَّا خَطَـٔٗا﴾فإن المخطئ الذى لا يقصد القتل غير آثم و لا مجترئ على محارم الله

و لكنه لما كان قد فعل فعلا شنيعًا و صورته كافية فى قبحه و إن لم يقصده أمر تعالى بالكفارة و الدية فقال:–

﴿وَمَن قَتَلَ مُؤۡمِنًا خَطَـٔٗا﴾سواء كان القاتل ذكرًا أو أنثى حرًّا أو عبدًا صغيرًا أو كبيرًا عاقلا أو مجنونًا مسلمًا

أو كافرًا كما يفيده لفظ « مَنْ » الدالة على العموم و هذا من أسرار الإتيان بـ« مَنْ » فى هذا الموضع

فإن سياق الكلام يقتضى أن يقول:–فإن قتله و لكن هذا لفظ لا يشمل ما تشمله « مَنْ »

و سواء كان المقتول ذكرًا أو أنثى صغيرًا أو كبيرًا كما يفيده التنكير فى سياق الشرط

فإن على القاتل ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾كفارة لذلك تكون فى ماله

و يشمل ذلك الصغير و الكبير و الذكر و الأنثى و الصحيح و المعيب فى قول بعض العلماء.

*و لكن الحكمة تقتضي أن لا يجزئ عتق المعيب فى الكفارة لأن المقصود بالعتق نفع العتيق و ملكه منافع

نفسه فإذا كان يضيع بعتقه و بقاؤه فى الرق أنفع له فإنه لا يجزئ عتقه مع أن فى قوله:–

(تحرير رقبة)ما يدل على ذلك فإن التحرير: تخليص من استحقت منافعه لغيره أن تكون له

فإذا لم يكن فيه منافع لم يتصور وجود التحرير. فتأمل ذلك فإنه واضح.

*و أما الدية فإنها تجب على عاقلة القاتل فى الخطأ و شبه العمد.

﴿وَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ﴾

*البخارى 6904 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ:«أَنَّ امْرَأَتَيْنِ مِنْ هُذَيْلٍ رَمَتْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى فَطَرَحَتْ جَنِينَهَا فَقَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺفِيهَا بِغُرَّةٍ عَبْدٍ أَوْ أَمَةٍ»

*جبرًا لقلوبهم و المراد بأهله هنا هم ورثته فإن الورثة يرثون ما ترك الميت فالدية داخلة فيما ترك

و للدية تفاصيل كثيرة مذكورة فى كتب الفقه.

﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ﴾أى: يتصدق ورثة القتيل بالعفو عن الدية فإنها تسقط

و فى ذلك :–حث لهم على العفو لأن الله سماها صدقة و الصدقة مطلوبة فى كل وقت.

﴿فَإِن كَانَ﴾المقتول

﴿مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ﴾من كفار حربيين

﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾و ليس عليكم لأهله دية لعدم احترامهم في دمائهم و أموالهم.

(فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۚ)و على القاتل تحرير رقبة مؤمنة لا غير

(وَإِن كَانَ)المقتول

(مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ)عهد و ميثاق.و ذلك لاحترام أهله بما لهم من العهود

(فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ)كاملة (إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ)

(فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ)الرقبة و لا ثمنها بأن كان معسرا بذلك ليس عنده ما يفضل عن مؤنته و حوائجه الأصلية شيء يفي بالرقبة

(فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ)لا يفطر بينهما من غير عذر فإن أفطر لعذر فإن العذر لا يقطع التتابع كالمرض و الحيض و نحوهما. و إن كان لغير عذر انقطع التتابع و وجب عليه استئناف الصوم.

*هذه الكفارات التى أوجبها الله على القاتل:- (تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ)على عباده

و رحمة بهم و تكفير لما عساه أن يحصل منهم من تقصير و عدم احتراز كما هو واقع كثيرًا للقاتل خطأ.

(وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا) كامل العلم كامل الحكمة لا يخفى عليه مثقال ذرة فى الأرض و لا فى السماء و لا أصغر من ذلك و لا أكبر فى أى وقت كان و أى محل كان.و لا يخرج عن حكمته من المخلوقات و الشرائع شيء بل كل ما خلقه و شرعه فهو متضمن لغاية الحكمة

*و من علمه و حكمتـه أن :-

1-أوجب على القاتل كفارة مناسبة لما صدر منه فإنه تسبب لإعدام نفس محترمة و أخرجها من الوجود إلى العدم ←فناسب أن يعتق رقبة و يخرجها من رق العبودية للخلق إلى الحرية التامة

-فإن لم يجد هذه الرقبة صام شهرين متتابعين فأخرج نفسه من رق الشهوات و اللذات الحسية القاطعة للعبد عن سعادته الأبدية إلى التعبد لله تعالى بتركها تقربا إلى الله.

و مدها تعالى بهذه المدة الكثيرة الشاقة في عددها و وجوب التتابع فيها و لم يشرع الإطعام فى هذا الموضع لعدم المناسبة. بخلاف الظهار كما سيأتى إن شاء الله تعالى.

2-و من حكمته أن أوجب فى القتل الدية و لو كان خطأ لتكون رادعة و كافة عن كثير من القتل باستعمال الأسباب العاصمة عن ذلك.

3-و من حكمته أن وجبت على العاقلة فى قتل الخطأ بإجماع العلماء لكون القاتل لم يذنب فيشق عليه أن يحمل هذه الدية الباهظة

فناسب أن يقوم بذلك من بينه و بينهم المعاونة و المناصرة و المساعدة على تحصيل المصالح و كف المفاسد

و لعل ذلك من أسباب منعهم لمن يعقلون عنه من القتل حذرًا من تحميلهم و يخف عنهم بسبب توزيعه عليهم بقدر أحوالهم و طاقتهم و خففت أيضا بتأجيلها عليهم ثلاث سنين.

4–و من حكمته و علمه أن جبر أهل القتيل عن مصيبتهم بالدية التي أوجبها على أولياء القاتل92

(وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا)

*وَ هَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَ وَعِيدٌ أَكِيدٌ لِمَنْ تَعَاطَى هَذَا الذَّنْبَ الْعَظِيمَ الَّذِى هُوَ مَقْرُونٌ بِالشِّرْكِ بِاللَّهِ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ حَيْثُ يَقُولُ سُبْحَانَهُ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ:–

(وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا) الفرقان: ٦٨

*البخارى6864 - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:- « أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ»

*تقدم أن الله أخبر أنه لا يصدر قتل المؤمن من المؤمن و أن القتل من الكفر العملى و ذكر هنا وعيد القاتل عمدا وعيدا ترجف له القلوب و تنصدع له الأفئدة و تنزعج منه أولو العقول.

*فلم يرد فى أنواع الكبائر أعظم من هذا الوعيد بل و لا مثله ألا و هو الإخبار بأن جزاءه جهنم

أى: فهذا الذنب العظيم قد انتهض وحده أن يُجازى صاحبه بجهنم بما فيها من العذاب العظيم و الخزى المهين و سخط الجبار و فوات الفوز و الفلاح و حصول الخيبة والخسار.

فعياذًا بالله من كل سبب يبعد عن رحمته.و هذا الوعيد له حكم أمثاله من نصوص الوعيد على بعض الكبائر والمعاصى بالخلود في النار أو حرمان الجنة.

*و قد اختلف الأئمة رحمهم الله في تأويلها مع اتفاقهم على بطلان قول الخوارج و المعتزلة الذين يخلدونهم في النار و لو كانوا موحدين.

*و الصواب في تأويلها ما قاله الإمام المحقق:–شمس الدين بن القيم رحمه الله فى « المدارج »

فإنه قال – بعدما ذكر تأويلات الأئمة في ذلك و انتقدها فقال:–

و قالت فِرقَة: هذه النصوص و أمثالها مما ذكر فيه المقتضى للعقوبة و لا يلزم من وجود مقتضى الحكم وجوده فإن الحكم إنما يتم بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه.

*و غاية هذه النصوص الإعلام بأن كذا سبب للعقوبة و مقتض لها

و قد قام الدليل على ذكر الموانع :–

فبعضها بالإجماع و بعضها بالنص. فالتوبة مانع بالإجماع

*و التوحيد مانع بالنصوص المتواترة التى لا مدفع لها و الحسنات العظيمة الماحية مانعة

و المصائب الكبار المكفرة مانعة و إقامة الحدود فى الدنيا مانع بالنص و لا سبيل إلى تعطيل هذه النصوص

فلا بد من إعمال النصوص من الجانبين.

و من هنا قامت الموازنة بين الحسنات و السيئات اعتبارًا بمقتضى العقاب و مانعه و إعمالا لأرجحها.

قالوا: و على هذا بناء مصالح الدارين و مفاسدهما.

و على هذا بناء الأحكام الشرعية و الأحكام القدرية و هو مقتضى الحكمة السارية في الوجود

و به ارتباط الأسباب و مسبباتها خلقا و أمرا و قد جعل الله سبحانه لكل ضد ضدا يدافعه و يقاومه

و يكون الحكم للأغلب منهما.

فالقوة مقتضية للصحة و العافية و فساد الأخلاط و بغيها مانع من عمل الطبيعة و فعل القوة و الحكم للغالب منهما و كذلك قوى الأدوية و الأمراض.

و العبد يكون فيه مقتض للصحة و مقتض للعطب و أحدهما يمنع كمال تأثير الآخر و يقاومه

فإذا ترجح عليه و قهره كان التأثير له.

*و مِنْ هنا يعلم انقسام الخلق إلى مَنْ يدخل الجنة و لا يدخل النار و عكسه

*و مَنْ يدخل النار ثم يخرج منها و يكون مكثه فيها بحسب ما فيه من مقتضى المكث في سرعة الخروج و بطئه.

و من له بصيرة منورة يرى بها كل ما أخبر الله به في كتابه من أمر المعاد و تفاصيله حتى كأنه يشاهده رأى عين.

و يعلم أن هذا هو مقتضى إلهيته سبحانه و ربوبيته و عزته و حكمته و أنه يستحيل عليه خلاف ذلك

و نسبة ذلك إليه نسبة ما لا يليق به إليه فيكون نسبة ذلك إلى بصيرته كنسبة الشمس و النجوم إلى بصره.

و هذا يقين الإيمان و هو الذى يحرق السيئات كما تحرق النار الحطب و صاحب هذا المقام من الإيمان يستحيل إصراره على السيئات و إن وقعت منه و كثرت

فإن ما معه من نور الإيمان يأمره بتجديد التوبة كل وقت بالرجوع إلى الله في عدد أنفاسه و هذا من أحب الخلق إلى الله. انتهى كلامه قدس الله روحه و جزاه عن الإسلام و المسلمين خيرا.

*وَ الَّذِى عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَ خَلَفِهَا:-أَنَّ الْقَاتِلَ لَهُ تَوْبَةٌ فِيمَا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنْ تَابَ وَ أَنَابَ وَ خَشَعَ وَ خَضَعَ وَ عَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا بَدَّلَ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِ حَسَنَاتٍ وَ عَوَّضَ الْمَقْتُولَ مِنْ ظُلَامَتِهِ وَ أَرْضَاهُ عَنْ طِلَابَتِهِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا 68 يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا 69 إِلا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [الْفُرْقَانِ] وَ هَذَا خَبَرٌ لَا يَجُوزُ نُسْخُهُ. وَ حَمْلُهُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ وَ حَمْلُ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ خِلَافُ الظَّاهِرِ وَ يَحْتَاجُ حَمْلُهُ إِلَى دَلِيلٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ تَعَالَى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الزُّمَر:53]

وَ هَذَا عَامٌّ فِي جَمِيعِ الذُّنُوبِ مِنْ:-

كُفْرٍ وَ شِرْكٍ وَ شَكٍّ وَ نِفَاقٍ وَ قَتْلٍ وَ فِسْقٍ وَ غَيْرِ ذَلِكَ:-كُلُّ مَنْ تَابَ مِنْ أَيِّ ذَلِكَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ.

وَ قَالَ تَعَالَى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النِّسَاء: 48] .

فَهَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي جَمِيعِ الذُّنُوبِ مَا عَدَا الشِّرْكَ وَ هِيَ مَذْكُورَةٌ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ وَ قَبْلَهَا لِتَقْوِيَةِ الرَّجَاءِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ خَبَرُ الْإِسْرَائِيلِيِّ الَّذِي قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ ثُمَّ سَأَلَ عَالِمًا: هَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟

فَقَالَ:-وَ مَنْ يَحُولُ بَيْنَكَ وَ بَيْنَ التَّوْبَةِ؟!

ثُمَّ أَرْشَدَهُ إِلَى بَلَدٍ يَعْبد اللَّهَ فِيهِ فَهَاجَرَ إِلَيْهِ فَمَاتَ فِي الطَّرِيقِ فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ.

كَمَا ذَكَرْنَاهُ غَيْرَ مَرَّةٍ إِنْ كَانَ هَذَا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلأن يَكُونَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ التَّوْبَةُ مَقْبُولَةٌ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَ الْأَحْرَى لِأَنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنَّا الْأَغْلَالَ وَ الْآصَارَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ وَ بَعَثَ نَبِيَّنَا بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ.

فَأَمَّا الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ وَ هِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى:

{وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا}

*وَ بِتَقْدِيرِ دُخُولِ الْقَاتِلِ إِلَى النَّارِ أَمَّا عَلَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَ مَنْ وَافَقَهُ أَنَّهُ لَا تَوْبَةَ لَهُ أَوْ عَلَى قَوْلِ الْجُمْهُورِ حَيْثُ لَا عَمَلَ لَهُ صَالِحًا يَنْجُو بِهِ فَلَيْسَ يَخْلُدُ فِيهَا أَبَدًا بَلِ الْخُلُودُ هُوَ الْمُكْثُ الطَّوِيلُ.

وَ قَدْ تَوَارَدَتِ الْأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:-أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ ﴿٩٣﴾

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ)

الحث على الجهاد و فضل المجاهدين 94-100

*الصحيح المسند من أسباب النزول:البخارى 4591 عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

{وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا}[النساء: 94] قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:كَانَ رَجُلٌ فِي غُنَيْمَةٍ لَهُ فَلَحِقَهُ الْمُسْلِمُونَ فَقَالَ: السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ فَقَتَلُوهُ وَ أَخَذُوا غُنَيْمَتَهُ(تصغير غنم أي قطيع صغير من الغنم)

فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ إِلَى قَوْلِهِ:{تَبْتَغُونَ عَرَضَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا}[النساء: 94] تِلْكَ الغُنَيْمَةُ" قَالَ: قَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ السَّلاَمَ

*أحمد 23881 - عَنْ أَبِيهِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي حَدْرَدٍ قَالَ:بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺإِلَى إِضَمَ

فَخَرَجْتُ فِي نَفَرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِيهِمْ أَبُو قَتَادَةَ الْحَارِثُ بْنُ رِبْعِيٍّ وَمُحَلِّمُ بْنُ جَثَّامَةَ بْنِ قَيْسٍ "

فَخَرَجْنَا حَتَّى إِذَا كُنَّا بِبَطْنِ إِضَمَ مَرَّ بِنَا عَامِرٌ الْأَشْجَعِيُّ عَلَى قَعُودٍ لَهُ مَعَهُ مُتَيِّعٌ وَ وَطْبٌ مِنْ لَبَنٍ

فَلَمَّا مَرَّ بِنَا سَلَّمَ عَلَيْنَا فَأَمْسَكْنَا عَنْهُ وَحَمَلَ عَلَيْهِ مُحَلِّمُ بْنُ جَثَّامَةَ فَقَتَلَهُ بِشَيْءٍ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ وَأَخَذَ بَعِيرَهُ وَمُتَيِّعَهُ فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺوَ أَخْبَرْنَاهُ الْخَبَرَ نَزَلَ فِينَا الْقُرْآنُ:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}[النساء: 94]

❍يأمر تعالى عباده المؤمنين إذا خرجوا جهادًا في سبيله و ابتغاء مرضاته أن يتبينوا و يتثبتوا في جميع أمورهم المشتبهة.فإن الأمور قسمان:-

1-واضحة 2-و غير واضحة.

فالواضحة البيِّنة لا تحتاج إلى تثبت و تبين لأن ذلك تحصيل حاصل.

و أما الأمور المشكلة غير الواضحة فإن الإنسان يحتاج إلى التثبت فيها و التبين ليعرف هل يقدم عليها أم لا؟
*فإن التثبت في هذه الأمور يحصل فيه من الفوائد الكثيرة و الكف لشرور عظيمة ما به يعرف دين العبد و عقله و رزانته بخلاف المستعجل للأمور في بدايتها قبل أن يتبين له حكمها
فإن ذلك يؤدي إلى ما لا ينبغى كما جرى لهؤلاء الذين عاتبهم الله في الآية لمَّا لم يتثبتوا و قتلوا من سلم عليهم و كان معه غنيمة له أو مال غيره ظنًّا أنه يستكفى بذلك قتلَهم و كان هذا خطأ في نفس الأمر
فلهذا عاتبهم بقوله:–
(وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا)
أي: فلا يحملنكم العرض الفانى القليل على ارتكاب ما لا ينبغى فيفوتكم ما عند الله من الثواب الجزيل الباقى
(فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌۚ)فما عند الله خير و أبقى.
*و فى هذا إشارة إلى أن العبد ينبغى له إذا رأى دواعي نفسه مائلة إلى حالة له فيها هوى و هى مضرة له أن يُذَكِّرها ما أعد الله لمن نهى نفسه عن هواها و قدَّم مرضاة الله على رضا نفسه
فإن فى ذلك ترغيبًا للنفس في امتثال أمر الله و إن شق ذلك عليها.
ثم قال تعالى مذكرًا لهم بحالهم الأولى قبل هدايتهم إلى الإسلام:–
(كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ)
أى: فكما هداكم بعد ضلالكم فكذلك يهدى غيركم و كما أن الهداية حصلت لكم شيئًا فشيئًا فكذلك غيركم.
*فنظر الكامل لحاله الأولى الناقصة و معاملته لمن كان – على مثلها بمقتضى ما يعرف من حاله الأولى و دعاؤه له بالحكمة و الموعظة الحسنة – من أكبر الأسباب لنفعه و انتفاعه
و لهذا أعاد الأمر بالتبين فقال: (فَتَبَيَّنُوٓاْ)
فإذا كان من خرج للجهاد فى سبيل الله و مجاهدة أعداء اللهو قد استعد بأنواع الاستعداد للإيقاع بهم مأمورًا بالتبين لمن ألقى إليه السلام و كانت القرينة قوية فى أنه إنما سلم تعوذا من القتل و خوفا على نفسه –
فإن ذلك يدل على الأمر بالتبين و التثبت فى كل الأحوال التى يقع فيها نوع اشتباه فيتثبت فيها العبد حتى يتضح له الأمر و يتبين الرشد و الصواب.
(إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)
فيجازى كُلا ما عمله و نواه بحسب ما علمه من أحوال عباده و نياتهم﴿٩٤﴾

لَّا يَسْتَوِى الْقَـٰعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ
فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَـٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَـٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَـٰهِدِينَ عَلَى الْقَـٰعِدِينَ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَـٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ الْمَلَـٰٓئِكَةُ
ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ۚ
فَأُولَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَآءِ وَالْوِلْدَٰنِ
لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَـٰٓئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾
۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِى الْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى الْأَرْضِ
فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوٓا ۚ إِنَّ الْكَـٰفِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾

(لَّا يَسْتَوِى)فى الأجر و المنزلة عند الله تعالى

(الْقَـٰعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)الذين قعدوا فى بيوتهم و بلادهم و لم يخرجوا إلى الجهاد

*أى: لا يستوى من جاهد من المؤمنين بنفسه و ماله و من لم يخرج للجهاد و لم يقاتل أعداء الله

*ففيه الحث على الخروج للجهاد و الترغيب فى ذلك و الترهيب من التكاسل و القعود عنه من غير عذر.

(غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ)

*و أما أهل الضرر كـ:-1-المريض 2-و الأعمى 3-و الأعرج 4-و الذى لا يجد ما يتجهز به

فإنهم ليسوا بمنزلة القاعدين من غير عذر فمن كان من أولى الضرر راضيًا بقعوده لا ينوى الخروج فى سبيل الله لولا وجود المانع و لا يُحَدِّث نفسه بذلك فإنه بمنزلة القاعد لغير عذر.

*و من كان عازمًا على الخروج في سبيل الله لولا وجود المانع يتمنى ذلك و يُحَدِّث به نفسه فإنه بمنزلة من خرج للجهاد لأن النية الجازمة إذا اقترن بها مقدورها من القول أو الفعل ينزل صاحبها منزلة الفاعل.

(وَالْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ)

*الصحيح المسند من أسباب النزول البخارى 4592عَنِ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ:-
حَدَّثَنِى سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ السَّاعِدِيُّ أَنَّهُ رَأَى مَرْوَانَ بْنَ الحَكَمِ فِي المَسْجِدِ فَأَقْبَلْتُ حَتَّى جَلَسْتُ إِلَى جَنْبِهِ
فَأَخْبَرَنَا أَنَّ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ أَخْبَرَهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺأَمْلَى عَلَيْهِ:-
{لاَ يَسْتَوِي القَاعِدُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ} [النساء: 95] {وَالمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [النساء: 95]
فَجَاءَهُ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ وَ هُوَ يُمِلُّهَا عَلَيَّ(يقرؤها على لأكتبها) قَالَ:-

يَا رَسُولَ اللَّهِ وَ اللَّهِ لَوْ أَسْتَطِيعُ الجِهَادَ لَجَاهَدْتُ و كَانَ أَعْمَى

«فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ وَ فَخِذُهُ عَلَى فَخِذِي فَثَقُلَتْ عَلَيَّ حَتَّى خِفْتُ أَنْ تَرُضَّ(تدق)فَخِذِي ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ(انكشف عنه الوح وذهب ما كان يعاني من شدته)»فَأَنْزَلَ اللَّهُ: (غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ)

*البخارى3954 -عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ سَمِعَهُ يَقُولُ:-

{لاَ يَسْتَوِي القَاعِدُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ} [النساء: 95] عَنْ بَدْرٍ وَ الخَارِجُونَ إِلَى بَدْرٍ "

*صَارَ ذَلِكَ مَخْرَجًا لِذَوِي الْأَعْذَارِ الْمُبِيحَةِ لِتَرْكِ الْجِهَادِ -مِنَ الْعَمَى و العَرَج وَ الْمَرَضِ-عَنْ مُسَاوَاتِهِمْ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ.

*البخارى2839 عَنْ أَنَسٍ ﵁: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺكَانَ فِي غَزَاةٍ فَقَالَ:-

إِنَّ أَقْوَامًا بِالْمَدِينَةِ خَلْفَنَا مَا سَلَكْنَا شِعْبًا وَ لاَ وَادِيًا إِلَّا وَ هُمْ مَعَنَا فِيهِ حَبَسَهُمُ(منعهم من الخروج)العُذْرُ (من مرض أو عدم نفقة أو غير ذلك)»

*ثم صرَّح تعالى بتفضيل المجاهدين على القاعدين فقال:–(فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ)

بالـ(دَرَجَةً)أي:–الرفعة و هذا تفضيل على وجه الإجمال

*ثم صرح بذلك على وجه التفصيل و وعدهم بالمغفرة الصادرة من ربهم و الرحمة التى تشتمل على حصول كل خير و اندفاع كل شر.

*و الدرجات التي فصلها النبى ﷺ بالحديث الثابت عنه فى« الصحيحين »أن فى الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء و الأرض أعدها الله للمجاهدين في سبيله.

*البخارى 2790 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ بِرَسُولِهِ وَ أَقَامَ الصَّلاَةَ وَ صَامَ رَمَضَانَ:-كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلاَ نُبَشِّرُ النَّاسَ؟

قَالَ:-«إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ(البستان الذى يجمع ما فى البساتين كلها من شجر و زهر و نبات)

فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَ أَعْلَى الجَنَّةِ - أُرَاهُ -(أظنه وهذا من كلام يحيى بن صالح شيخ البخارى أى أظنه قال)فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَ مِنْهُ تَفَجَّرُ(تنشق) أَنْهَارُ الجَنَّةِ»قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ فُلَيْحٍ عَنْ أَبِيهِ: وَ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ

*و هذا الثواب الذى رتبه الله على الجهاد نظير الذي فى سورة الصف فى قوله:–

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ* تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ* يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ إلى آخر السورة

(وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ) الجنة

*و تأمل حسن هذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها فإنه نفى التسوية أولا بين المجاهد و غيره

(وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا) ﴿٩٥﴾

* ثم صرَّح بتفضيل المجاهد على القاعد بدرجة ثم انتقل إلى تفضيله بالمغفرة و الرحمة و الدرجات فقال:-

(دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ)

*و هذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها عند التفضيل و المدح أو النزول من حالة إلى ما دونها عند القدح و الذم – أحسن لفظا و أوقع فى النفس

*و كذلك إذا فضَّل تعالى شيئا على شيء و كل منهما له فضل احترز بذكر الفضل الجامع للأمرين لئلا يتوهم أحد ذم المفضل عليه كما قال هنا (وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ) و كما قال تعالى في الآيات المذكورة فى الصف فى قوله:-(وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)و كما فى قوله تعالى(لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ)أى ممن لم يكن كذلك ثم قال (وَكُلا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى)

و كما قال تعالى(فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا)فينبغى لمن بحث فى التفضيل بين الأشخاص و الطوائف و الأعمال أن يتفطن لهذه النكتة و كذلك لو تكلم فى ذم الأشخاص و المقالات ذكر ما تجتمع فيه عند تفضيل بعضها على بعض لئلا يتوهم أن المفضَّل قد حصل له الكمال كما إذا قيل النصارى خير من المجوس فليقل مع ذلك و كل منهما كافر و القتل أشنع من الزنا و كل منهما معصية كبيرة حرمها الله و رسوله و زجر عنها

*و لما وعد المجاهدين بالمغفرة و الرحمة الصادرَيْن عن اسميه الكريمين(الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) ختم هذا الآية بهما فقال:-(وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا) 96

(إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ)

*الصحيح المسند من أسباب النزول:البخارى 4596 –عن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه:-

قُطِعَ عَلَى أَهْلِ المَدِينَةِ بَعْثٌ(ألزموا بإخراج جيش لقتال أهل الشام وذلك في خلافة عبد الله بن الزبير رضي الله عنه على مكة)

فَاكْتُتِبْتُ(جعلت فى عداد من يخرج مع هذا الجيش)فِيهِ فَلَقِيتُ عِكْرِمَةَ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَأَخْبَرْتُهُ فَنَهَانِي عَنْ ذَلِكَ أَشَدَّ النَّهْيِ ثُمَّ قَالَ: أَخْبَرَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ: «أَنَّ نَاسًا مِنَ المُسْلِمِينَ كَانُوا مَعَ المُشْرِكِينَ يُكَثِّرُونَ سَوَادَ المُشْرِكِينَ

(جماعتهم أى مع أنهم لا يوافقونهم فى قلوبهم كانوا ظالمين لأنهم أفادوهم قوة بوجودهم معهم. و السواد العدد الكثير وسواد الناس معظمهم وأكثرهم)

عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَأْتِي السَّهْمُ فَيُرْمَى بِهِ فَيُصِيبُ أَحَدَهُمْ فَيَقْتُلُهُ - أَوْ يُضْرَبُ فَيُقْتَلُ»فَأَنْزَلَ اللَّهُ:- {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ المَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ} [النساء: 97] الآيَةَ

*هذا الوعيد الشديد لمن ترك الهجرة مع قدرته عليها حتى مات فإن الملائكة الذين يقبضون روحه يوبخونه بهذا التوبيخ العظيم و يقولون لهم:-(فِيمَ كُنتُمۡۖ)أى: على أى حال كنتم؟و بأى شيء تميزتم عن المشركين؟

بل:-1–كثرتم سوادهم 2–و ربما ظاهرتموهم على المؤمنين 3–و فاتكم الخير الكثير بالجهاد مع رسوله و الكون مع المسلمين و معاونتهم على أعدائهم.

(قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ)ضعفاء مقهورين مظلومين ليس لنا قدرة على الهجرة(فِي ٱلۡأَرۡضِۚ)

و هم غير صادقين في ذلك لأن الله وبخهم و توعدهم و لا يكلف الله نفسا إلا وسعها و استثنى المستضعفين حقيقة. و لهذا قالت لهم الملائكة: –(أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ)إليها

*و هذا استفهام تقرير أي: قد تقرر عند كل أحد أن أرض الله واسعة فحيثما كان العبد في محل لا يتمكن فيه من إظهار دينه فإن له متسعًا و فسحة من الأرض يتمكن فيها من عبادة الله كما قال تعالى:–

(يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ)

قال الله عن هؤلاء الذين لا عذر لهم:–(فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا)

و هذا كما تقدم فيه ذكر بيان السبب الموجِب فقد يترتب عليه مقتضاه مع اجتماع شروطه و انتفاء موانعه و قد يمنع من ذلك مانع.

و في الآية دليل على:–

1–أن الهجرة من أكبر الواجبات و تركها من المحرمات بل من الكبائر

2–و في الآية دليل على أن كل مَن توفى فقد استكمل و استوفى ما قدر له من الرزق و الأجل و العمل و ذلك مأخوذ من لفظ « التوفى » فإنه يدل على ذلك لأنه لو بقى عليه شيء من ذلك لم يكن متوفيًا.

3–و فيه الإيمان بالملائكة و مدحهم لأن الله ساق ذلك الخطاب لهم على وجه التقرير و الاستحسان منهم و موافقته لمحله97

ثم استثنى المستضعفين على الحقيقة الذين لا قدرة لهم على الهجرة بوجه من الوجوه فقال:–

(إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ)لا قدرة لهم على التحول و الانتقال لضعفهم (وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا)طريقا98

فهؤلاء قال الله فيهم: (فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا)

و « عسى » و نحوها واجب وقوعها من الله تعالى بمقتضى كرمه و إحسانه و في الترجية بالثواب لمن عمل بعض الأعمال فائدة و هو أنه قد لا يوفيه حق توفيته و لا يعمله على الوجه اللائق الذي ينبغي بل يكون مقصرًا فلا يستحق ذلك الثواب. و الله أعلم.

*و في الآية الكريمة دليل على :–

أن من عجز عن المأمور من واجب و غيره فإنه معذور كما قال تعالى في العاجزين عن الجهاد:–

(لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ)و قال في عموم الأوامر(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ)

و قال النبي ﷺ: « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم »

و لكن لا يعذر الإنسان إلا إذا بذل جهده و انسدت عليه أبواب الحيل لقوله: (لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً)

*و في الآية تنبيه على :–

أن الدليل فى الحج و العمرة و نحوهما مما يحتاج إلى سفر من شروط الاستطاعة.

*البخارى1006 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه:-أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرَّكْعَةِ الآخِرَةِ يَقُولُ: "
اللَّهُمَّ أَنْجِ عَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ اللَّهُمَّ أَنْجِ سَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ اللَّهُمَّ أَنْجِ الوَلِيدَ بْنَ الوَلِيدِ
اللَّهُمَّ أَنْجِ المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ المُؤْمِنِينَ اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ(المراد قريش) اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا سِنِينَ كَسِنِي
يُوسُفَ:(فى الشدة و القحط والبلاء)وَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:غِفَارُ(قبيلة من كنانة)غَفَرَ اللَّهُ لَهَا وَ أَسْلَمُ(قبيلة من خزاعة)سَالَمَهَا اللَّهُ 99

(وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا)

*فإن المراغمة:–

1–اسم جامع لكل ما يَحصل به إغاظة لأعداء الله من قول و فعل و كذلك ما يحصل له سعة فى رزقه
2-مُتَزَحْزَحًا عَمَّا يُكْرَهُ.
3-بُرُوجًا.و الظَّاهِرُ -وَ اللَّهُ أَعْلَمُ-أَنَّهُ التَّمَنُّعُ الَّذِى يُتَحصَّن بِهِ وَ يُرَاغَمُ بِهِ الْأَعْدَاءُ.

(وَسَعَةٗۚ)

*البخارى4587 - عَنْ ابْنَ عَبَّاسٍ قَالَ:«كُنْتُ أَنَا وَ أُمِّى مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَ النِّسَاءِ»
*عَنْ أَبِي ضَمْرَةَ بْنِ الْعِيصِ الزُّرَقِى الَّذِى كَانَ مُصَابَ الْبَصَرِ وَ كَانَ بِمَكَّةَ فَلَمَّا نَزَلَتْ:
{إِلا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً}فَقُلْتُ: إِنِّى لَغَنِيٌّ وَ إِنِّى لَذُو حِيلَةٍ قَال:-
فَتَجَهَّزَ يُرِيدُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَدْرَكَهُ الْمَوْتُ بالتَّنْعِيم فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ:-
{وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}

*هذا في بيان الحث على الهجرة و الترغيب و بيان ما فيها من المصالح فوعد الصادق فى وعده أن من هاجر في سبيله ابتغاء مرضاته أنه يجد مراغما فى الأرض و سعة فالمراغم مشتمل على مصالح الدين و السعة على مصالح الدنيا.

و ذلك أن كثيرًا من الناس يتوهم أن فى الهجرة:–

شتاتًا بعد الألفة و فقرًا بعد الغنى و ذلا بعد العز و شدة بعد الرخاء. و الأمر ليس كذلك

فإن المؤمن ما دام بين أظهر المشركين فدينه في غاية النقص لا فى العبادات القاصرة عليه كالصلاة و نحوها و لا في العبادات المتعدية كالجهاد بالقول و الفعل و توابع ذلك لعدم تمكنه من ذلك و هو بصدد أن يفتن عن دينه خصوصا إن كان مستضعفًا.

*فإذا هاجر فى سبيل الله تمكن من إقامة دين الله و جهاد أعداء الله و مراغمتهم

*و قد وقع كما أخبر الله تعالى.و اعتبر ذلك بالصحابة رضى الله عنهم:–

فإنهم لما هاجروا في سبيل الله و تركوا ديارهم و أولادهم و أموالهم لله←كمل بذلك إيمانهم و حصل لهم من الإيمان التام و الجهاد العظيم و النصر لدين الله ما كانوا به أئمة لمن بعدهم و كذلك حصل لهم مما يترتب

على ذلك من الفتوحات و الغنائم ما كانوا به أغنى الناس و هكذا كل من فعل فعلهم حصل له ما حصل لهم إلى يوم القيامة.

*ثم قال:(وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ)

قاصدا ربه و رضاه و محبة لرسوله و نصرًا لدين الله لا لغير ذلك من المقاصد

(ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ)بقتل أو غيره

وَ مَنْ خَرَجَ مِنْ مَنْزِلِهِ بِنِيَّةِ الْهِجْرَةِ فَمَاتَ فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيق

(فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ)فَقَدْ حَصَلَ لَهُ مِنَ اللَّهِ ثَوَابُ مَنْ هَاجَرَ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَ غَيْرِهِمَا عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ:-قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-

"إنما الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَ إِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَ مَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ" .

*وَ هَذَا عَامٌّ فِي الْهِجْرَةِ وَ فِي كُلِّ الْأَعْمَالِ.

وَ مِنْهُ الْحَدِيثُ الثَّابِتُ فِي الصَّحِيحَيْنِ فِي الرَّجُلِ الَّذِي قَتَلَ تِسْعَةً وَ تِسْعِينَ نَفْسًا.

ثُمَّ أَكْمَلَ بِذَلِكَ الْعَابِدِ الْمِائَةَ ثُمَّ سَأَلَ عَالِمًا: هَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: وَ مَنْ يَحُول بَيْنَكَ وَ بَيْنَ التَّوْبَةِ؟

ثُمَّ أَرْشَدَهُ إِلَى أَنْ يَتَحَوَّلَ مِنْ بَلَدِهِ إِلَى بَلَدٍ آخَرَ يَعْبُدُ اللَّهَ فِيهِ فَلَمَّا ارْتَحَلَ مِنْ بَلَدِهِ مُهَاجِرًا إِلَى الْبَلَدِ الْآخَرِ أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ

فَقَالَ هَؤُلَاءِ: إِنَّهُ جَاءَ تَائِبًا. وَقَالَ هَؤُلَاءِ: إِنَّهُ لَمْ يَصِلْ بَعْدُ.

فَأُمِرُوا أَنْ يَقِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَقْرَبُ كَانَ مِنْهَا فَأَمَرَ اللَّهُ هَذِهِ أَنْ يُقرب مِنْ هَذِهِ وَهَذِهِ أَنْ تَبْعُدَ فَوَجَدُوهُ أَقْرَبَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِى هَاجَرَ إِلَيْهَا بِشِبْرٍ فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ.

وَ فِي رِوَايَةٍ: أَنَّهُ لَمَّا جَاءَهُ الْمَوْتُ نَاءَ بِصَدْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِى هَاجَرَ إِلَيْهَا.

*أي:فقد حصل له أجر المهاجر الذي أدرك مقصوده بضمان الله تعالى و ذلك لأنه نوى و جزم و حصل منه ابتداء و شروع فى العمل

*فمن رحمة الله به و بأمثاله أن أعطاهم أجرهم كاملا و لو لم يكملوا العمل و غفر لهم ما حصل منهم من التقصير في الهجرة و غيرها. و لهذا ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين فقال:–

(وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا)يغفر للمؤمنين ما اقترفوه من الخطيئات خصوصا التائبين المنيبين إلى ربهم.

(رَّحِيمًا)بجميع الخلق رحمة أوجدتهم و عافتهم و رزقتهم من المال و البنين و القوة و غير ذلك.

رحيمًا بالمؤمنين حيث وفقهم للإيمان

و علمهم من العلم ما يحصل به الإيقان و يسر لهم أسباب السعادة و الفلاح و ما به يدركون غاية الأرباح

و سيرون من رحمته و كرمه ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر

فنسأل الله أن لا يحرمنا خيره بشر ما عندنا﴿١٠٠﴾

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا

هاتان الآيتان أصل في رخصة القصر و صلاة الخوف يقول تعالى:

قصر الصلاة و صلاة الخوف 101-104

(وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ)

*كقوله﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ المزمل: ٢٠

أي: في السفر و ظاهر الآية أنه يقتضى الترخص فى أى سفر كان و لو كان سفر معصية كما هو مذهب أبي حنيفة رحمه الله و خالف في ذلك الجمهور و هم الأئمة الثلاثة و غيرهم

فلم يجوزوا الترخص في سفر المعصية تخصيصا للآية بالمعنى و المناسبة فإن الرخصة سهولة من الله لعباده إذا سافروا أن يقصروا و يفطروا و العاصي بسفره لا يناسب حاله التخفيف.

وقوله: (فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ)حرج و لا إثم عليكم(أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ)

و لا ينافي ذلك كون القصر هو الأفضل لأن نفى الحرج إزالة لبعض الوهم الواقع فى كثير من النفوس

بل و لا ينافي الوجوب كما تقدم ذلك في سورة البقرة في قوله:(إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ)إلى آخر الآية.

و إزالة الوهم في هذا الموضع ظاهرة لأن الصلاة قد تقرر عند المسلمين وجوبها على هذه الصفة التامة

و لا يزيل هذا عن نفوس أكثرهم إلا بذكر ما ينافيه.

و يدل على أفضلية القصر على الإتمام أمـــران: –

أحدهما:–ملازمة النبى ﷺعلى القصر فى جميع أسفاره.

و الثانى:–أن هذا من باب التوسعة و الترخيص والرحمة بالعباد و الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته.

*و قوله: (أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ) و لم يقل أن تقصروا الصلاة فيه فائدتان:–

1– أنه لو قال أن تقصروا الصلاة لكان القصر غير منضبط بحد من الحدود فربما ظن أنه لو قصر معظم الصلاة و جعلها ركعة واحدة لأجزأ فإتيانه بقوله:–

(مِنَ الصَّلاةِ)ليدل ذلك على أن القصر محدود مضبوط مرجوع فيه إلي ما تقرر من فعل النبى ﷺو أصحابه.

2– أن(من)تفيد التبعيض ليعلم بذلك أن القصر لبعض الصلوات المفروضات لا جميعها

فإن الفجر والمغرب لا يقصران و إنما الذى يقصر الصلاة الرباعية من أربع إلي ركعتين.

فإذا تقرر أن القصر فى السفر رخصة فاعلم أن المفسرين قد اختلفوا فى هذا القيد و هو قوله:–

(إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ)يعتدوا عليكم و ليس يفتنكم أى يضلوكم عن دينكم

(ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ)الذى يدل ظاهره أن القصر لا يجوز إلا بوجود الأمرين كليهما السفر مع الخوف

و يرجع حاصل اختلافهم إلى أنه هل المراد بقوله:–(أَنْ تَقْصُرُوا)

قصر العدد فقط؟أو قصر العدد والصفة؟

فالإشكال إنما يكون على الوجه الأول.و قد أشكل هذا على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ

حتى سأل عنه النبى ﷺفقال: يا رسول الله ما لنا نقصر الصلاة و قد أمِنَّا؟

أى: و الله يقول:–(إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا) فقال رسول الله ﷺ:–

«صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته »مسلم 686

فعلى هذا يكون هذا القيد أتى به نظرا لغالب الحال التي كان النبى ﷺو أصحابه عليها فإن غالب أسفاره أسفار جهاد.

و فيه فائدة أخرى:–

و هي بيان الحكمة و المصلحة في مشروعية رخصة القصر فبيَّن فى هذه الآية أنهى ما يتصور من المشقة المناسبة للرخصة و هى اجتماع السفر و الخوف و لا يستلزم ذلك أن لا يقصر مع السفر وحده الذي هو مظنة المشقة.

و أما على الوجه الثانى:– و هو أن المراد بالقصر:– قصر العدد و الصفة فإن القيد على بابه

فإذا وجد السفر و الخوف جاز قصر العدد و قصر الصفة و إذا وجد السفر وحده جاز قصر العدد فقط

أو الخوف وحده جاز قصر الصفة و لذلك أتى بصفة صلاة الخوف بعدها بقوله:

*مسلم (686) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ بَابَيْهِ عَنْ يَعْلَى بْنِ أُمَيَّةَ قَالَ:-قُلْتُ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ:-

{لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا}فَقَدْ أَمِنَ النَّاسُ فَقَالَ:-

عَجِبْتُ مِمَّا عَجِبْتَ مِنْهُ فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺعَنْ ذَلِكَ فَقَالَ«صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللهُ بِهَا عَلَيْكُمْ فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ»

*البخارى1081 -عن أَنَس ﷺ يَقُولُ:خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺمِنَ المَدِينَةِ إِلَى مَكَّةَ فَكَانَ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ (أى إلا المغرب فإنه يصليها ثلاثا)حَتَّى رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ قُلْتُ: أَقَمْتُمْ بِمَكَّةَ شَيْئًا؟ قَالَ: أَقَمْنَا بِهَا عَشْرًا "

*البخارى1083 - عن حَارِثَةَ بْنَ وَهْبٍ ﷺ قَالَ:-

«صَلَّى بِنَا النَّبِيُّ ﷺآمَنَ مَا كَانَ(وهو حال من الأمن أكثر من أى وقت آخر) بِمِنًى رَكْعَتَيْنِ»

*البخارى1102 عن ابْنَ عُمَرَ ﷺ يَقُولُ: «صَحِبْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺفَكَانَ لاَ يَزِيدُ فِي السَّفَرِ عَلَى رَكْعَتَيْنِ وَ أَبَا بَكْرٍ وَ عُمَرَ وَ عُثْمَانَ كَذَلِكَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ»

*فَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ دَالَّةٌ صَرِيحًا عَلَى أَنَّ الْقَصْرَ لَيْسَ مِنْ شَرْطِهِ وُجُودُ الْخَوْفِ و اعتضدوا أيضا بما رواه مالك

البخارى 1090 عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ:«الصَّلاَةُ أَوَّلُ مَا فُرِضَتْ رَكْعَتَيْنِ فَأُقِرَّتْ صَلاَةُ السَّفَرِ وَ أُتِمَّتْ صَلاَةُ الحَضَرِ»قَالَ الزُّهْرِيُّ: فَقُلْتُ لِعُرْوَةَ: مَا بَالُ عَائِشَةَ تُتِمُّ؟ قَالَ:

«تَأَوَّلَتْ مَا تَأَوَّلَ عُثْمَانُ»(فهمت منه ما فهمه عثمان ﷺ من جواز القصر والإتمام)

*مسلم (687) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:-

«فَرَضَ اللهُ الصَّلَاةَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّكُمْ ﷺ فِي الْحَضَرِ أَرْبَعًا وَ فِي السَّفَرِ رَكْعَتَيْنِ وَ فِي الْخَوْفِ رَكْعَةً»

*فَهَذَا ثَابِتٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَ لَا يُنَافِي مَا تَقَدَّمَ عَنْ عَائِشَةَ لِأَنَّهَا أَخْبَرَتْ أَنَّ أَصْلَ الصَّلَاةِ رَكْعَتَانِ وَ لَكِنْ زِيدَ فِي صَلَاةِ الْحَضَرِ فَلَمَّا اسْتَقَرَّ ذَلِكَ صَحَّ أَنْ يُقَالَ:-

إِنَّ فَرْضَ صَلَاةِ الْحَضَرِ أَرْبَعٌ كَمَا قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ (١٠١)

وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ
فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ
وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ
فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ
أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾
فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ
فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾
وَلَا تَهِنُواْ فِي ابْتِغَآءِ الْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ
وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ
لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَآ أَرَاكَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾

(وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ)

صليت بهم صلاة تقيمها و تتم ما يجب فيها و يلزم فعلمهم ما ينبغى لك و لهم فعله.

*الصحيح المسند من أسباب النزول:-أحمد 16580 - عَنْ أَبِي عَيَّاشٍ الزُّرَقِيِّ قَالَ:

كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺبِعُسْفَانَ فَاسْتَقْبَلَنَا الْمُشْرِكُونَ عَلَيْهِمْ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَهُمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ «فَصَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺالظُّهْرَ»فَقَالُوا: قَدْ كَانُوا عَلَى حَالٍ لَوْ أَصَبْنَا غِرَّتَهُمْ ثُمَّ قَالُوا:- تَأْتِي عَلَيْهِمُ الْآنَ صَلَاةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْ أَبْنَائِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ قَالَ:-فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَذِهِ الْآيَاتِ بَيْنَ الظُّهْرِ وَ الْعَصْرِ {وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ} [النساء: 102]

قَالَ: فَحَضَرَتْ فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺفَأَخَذُوا السِّلَاحَ قَالَ: فَصَفَفْنَا خَلْفَهُ صَفَّيْنِ قَالَ:-

ثُمَّ رَكَعَ فَرَكَعْنَا جَمِيعًا ثُمَّ رَفَعَ فَرَفَعْنَا جَمِيعًا ثُمَّ سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺبِالصَّفِّ الَّذِي يَلِيهِ وَالْآخَرُونَ قِيَامٌ يَحْرُسُونَهُمْ فَلَمَّا سَجَدُوا وَقَامُوا جَلَسَ الْآخَرُونَ فَسَجَدُوا فِي مَكَانِهِمْ ثُمَّ تَقَدَّمَ هَؤُلَاءِ إِلَى مَصَافِّ هَؤُلَاءِ وَجَاءَ هَؤُلَاءِ إِلَى مَصَافِّ هَؤُلَاءِ قَالَ: ثُمَّ رَكَعَ فَرَكَعُوا جَمِيعًا ثُمَّ رَفَعَ فَرَفَعُوا جَمِيعًا

ثُمَّ سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺوَ الصَّفُّ الَّذِي يَلِيهِ وَالْآخَرُونَ قِيَامٌ يَحْرُسُونَهُمْ فَلَمَّا جَلَسَ جَلَسَ الْآخَرُونَ فَسَجَدُوا ثُمَّ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ ثُمَّ انْصَرَفَ قَالَ: فَصَلَّاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺمَرَّتَيْنِ:-مَرَّةً بِعُسْفَانَ وَ مَرَّةً بِأَرْضِ بَنِى سُلَيْمٍ "

*البخارى

944 عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:-«قَامَ النَّبِيُّ ﷺوَ قَامَ النَّاسُ مَعَهُ فَكَبَّرَ وَ كَبَّرُوا مَعَهُ وَ رَكَعَ وَ رَكَعَ نَاسٌ مِنْهُمْ مَعَهُ ثُمَّ سَجَدَ وَ سَجَدُوا مَعَهُ ثُمَّ قَامَ لِلثَّانِيَةِ فَقَامَ الَّذِينَ سَجَدُوا وَحَرَسُوا إِخْوَانَهُمْ

وَ أَتَتِ الطَّائِفَةُ الْأُخْرَى(الذين لم يركعوا و لم يسجدوا معه فى الركعة الأولى)فَرَكَعُوا وَ سَجَدُوا مَعَهُ وَ النَّاسُ كُلُّهُمْ فِي صَلَاةٍ وَ لَكِنْ يَحْرُسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا»

*مسلم(840) عَنْ جَابِرٍ ﵁قَالَ: " غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺقَوْمًا مِنْ جُهَيْنَةَ فَقَاتَلُونَا قِتَالًا شَدِيدًا فَلَمَّا صَلَّيْنَا الظُّهْرَ قَالَ الْمُشْرِكُونَ: لَوْ مِلْنَا عَلَيْهِمْ مَيْلَةً(لو حملنا عليهم حملة)لَاقْتَطَعْنَاهُمْ(لأصبناهم منفردين و استأصلناهم)

فَأَخْبَرَ جِبْرِيلُ رَسُولَ اللهِ ﷺذَلِكَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺقَالَ:-وَ قَالُوا:-

إِنَّهُ سَتَأْتِيهِمْ صَلَاةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنَ الْأَوْلَادِ فَلَمَّا حَضَرَتِ الْعَصْرُ قَالَ:-

صَفَّنَا صَفَّيْنِ وَ الْمُشْرِكُونَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ الْقِبْلَةِ قَالَ: فَكَبَّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺوَ كَبَّرْنَا وَ رَكَعَ فَرَكَعْنَا ثُمَّ سَجَدَ وَ سَجَدَ مَعَهُ الصَّفُّ الْأَوَّلُ فَلَمَّا قَامُوا سَجَدَ الصَّفُّ الثَّانِي ثُمَّ تَأَخَّرَ الصَّفُّ الْأَوَّلُ وَ تَقَدَّمَ الصَّفُّ الثَّانِي فَقَامُوا مَقَامَ الْأَوَّلِ فَكَبَّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَ كَبَّرْنَا وَ رَكَعَ فَرَكَعْنَا ثُمَّ سَجَدَ وَ سَجَدَ مَعَهُ الصَّفُّ الْأَوَّلُ وَ قَامَ الثَّانِي فَلَمَّا سَجَدَ الصَّفُّ الثَّانِي ثُمَّ جَلَسُوا جَمِيعًا سَلَّمَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ".

قَالَ أَبُو الزُّبَيْرِ: ثُمَّ خَصَّ جَابِرٌ أَنْ قَالَ: كَمَا يُصَلِّي أُمَرَاؤُكُمْ هَؤُلَاءِ

ثم فسَّر ذلك بقوله: (فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ)

و طائفة قائمة بإزاء العدو كما يدل على ذلك ما يأتى:–

(فَإِذَا سَجَدُواْ)أى الذين معك أى:أكملوا صلاتهم و عبر عن الصلاة بالسجود ليدل على فضل السجود و أنه ركن من أركانها بل هو أعظم أركانها.

*وَ أَمَّا الْأَمْرُ بِحَمْلِ السِّلَاحِ فِي صَلَاةِ الْخَوْفِ فَمَحْمُولٌ عِنْدَ طَائِفَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ عَلَى الْوُجُوبِ لِظَاهِرِ الْآيَةِ وَ هُوَ أَحَدُ قَوْلَيِ الشَّافِعِيِّ وَ يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ:-

{وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ}

أَيْ: بِحَيْثُ تَكُونُونَ عَلَى أُهْبَةٍ إِذَا احْتَجْتُمْ إِلَيْهَا لَبِسْتُمُوهَا بِلَا كُلْفَةٍ: {إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا}

(فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ) و هم الطائفة الذين قاموا إزاء العدو

(فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ)و دل ذلك على أن الإمام يبقى بعد انصراف الطائفة الأولى منتظرا للطائفة الثانية فإذا حضروا صلى بهم ما بقى من صلاته ثم جلس ينتظرهم حتى يكملوا صلاتهم ثم يسلم بهم و هذا أحد الوجوه في صلاة الخوف. فإنها صحت عن النبى ﷺمن وجوه كثيرة كلها جائزة

و هذه الآية تدل على أن صلاة الجماعة فرض عين من وجهين:–

أحدهما:–أن الله تعالى أمر بها فى هذه الحالة الشديدة وقت اشتداد الخوف من الأعداء و حذر مهاجمتهم فإذا أوجبها فى هذه الحالة الشديدة فإيجابها فى حالة الطمأنينة و الأمن من باب أَوْلَى و أحرى.

و الثاني:–أن المصلين صلاة الخوف يتركون فيها كثيرا من الشروط و اللوازم و يعفى فيها عن كثير من الأفعال المبطلة فى غيرها و ما ذاك إلا لتأكد وجوب الجماعة لأنه لا تعارض بين واجب و مستحب

فلولا وجوب الجماعة لم تترك هذه الأمور اللازمة لأجلها.

*و تدل الآية الكريمة على أن الأولى و الأفضل أن يصلوا بإمام واحد.

و لو تضمن ذلك الإخلال بشيء لا يخل به لو صلوها بعدة أئمة و ذلك لأجل اجتماع كلمة المسلمين

و اتفاقهم و عدم تفرق كلمتهم و ليكون ذلك أوقع هيبة في قلوب أعدائهم

*و أمر تعالى بأخذ السلاح و الحذر فى صلاة الخوف و هذا و إن كان فيه حركة و اشتغال عن بعض أحوال

الصلاة فإن فيه مصلحة راجحة و هو الجمع بين الصلاة و الجهاد

و الحذر من الأعداء الحريصين غاية الحرص على الإيقاع بالمسلمين و الميل عليهم و على أمتعتهم

و لهذا قال تعالى:-(وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ)

ثم إن الله عذر من له عذر من مرض أو مطر أن يضع سلاحه و لكن مع أخذ الحذر فقال:-

(وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡۖ وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۗ

إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا)

*و من العذاب المهين ما أمر الله به حزبه المؤمنين و أنصار دينه الموحدين من:-

1-قتلهم 2-و قتالهم حيثما ثقفوهم 3-و يأخذوهم و يحصروهم 4-و يقعدوا لهم كل مرصد

5-و يحذروهم فى جميع الأحوال 6-و لا يغفلوا عنهم خشية أن ينال الكفار بعض مطلوبهم فيهم.

*فلله أعظم حمد و ثناء على ما مَنَّ به على المؤمنين

و أيَّدَهم بمعونته و تعاليمه التى لو سلكوها على وجه الكمال:-

1-لم تُهزم لهم راية 2-و لم يَظهر عليهم عدو فى وقت من الأوقات.

*و فى قوله:(فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ) يدل على :-

1-أن هذه الطائفة تكمل جميع صلاتها قبل ذهابهم إلى موضع الحارسين.

2-و أن الرسول ﷺيثبت منتظرا للطائفة الأخرى قبل السلام لأنه أولا ذكر أن الطائفة تقوم معه

فأخبر عن مصاحبتهم له. ثم أضاف الفعل بعْدُ إليهم دون الرسول فدل ذلك على ما ذكرناه.

*و فى قوله:(وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ)دليل على أن الطائفة الأولى قد صلوا

و أن جميع صلاة الطائفة الثانية تكون مع الإمام حقيقة فى ركعتهم الأولى و حكما في ركعتهم الأخيرة

فيستلزم ذلك انتظار الإمام إياهم حتى يكملوا صلاتهم ثم يسلم بهم و هذا ظاهر للمتأمل.

*الصحيح المسند من أسباب النزول:البخارى4599 عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:-

{إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى}[النساء: 102]قَالَ(ابن عباس رضى الله عنها):-

«عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ كَانَ جَرِيحًا(فنزلت الآية فيه تخفيفا عنه)»

(فَإِذَا قَضَيۡتُمُ)فرغتم من(ٱلصَّلَوٰةَ)صلاتكم صلاة الخوف و غيرها

(فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ)أى فى جميع أحوالكم و هيئاتكم

و لكن خصت صلاة الخوف بذلك لفوائد منها:–

1–أن القلب صلاحه و فلاحه وسعادته بالإنابة إلى الله تعالى فى المحبة و امتلاء القلب من ذكره والثناء عليه.

و أعظم ما يحصل به هذا المقصود الصلاة التى حقيقتها أنها صلة بين العبد و بين ربهٍ

2–أن فيها من حقائق الإيمان و معارف الإيقان ما أوجب أن يفرضها الله على عباده كل يوم و ليلة.

*و من المعلوم أن صلاة الخوف لا تحصل فيها هذه المقاصد الحميدة بسبب اشتغال القلب و البدن و الخوف فأمر بجبرها بالذكر بعدها.

3–أن الخوف يوجب من قلق القلب و خوفه ما هو مظنة لضعفه و إذا ضعف القلب ضعف البدن عن مقاومة العدو و الذكر لله والإكثار منه من أعظم مقويات القلب.

4–أن الذكر لله تعالى مع الصبر و الثبات سبب للفلاح و الظفر بالأعداء كما قال تعالى:–

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

فأمر بالإكثار منه فى هذه الحال إلى غير ذلك من الحِكَم.

(فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ)إذا أمنتم من الخوف و اطمأنت قلوبكم و أبدانكم

(فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ)فأتموا صلاتكم على الوجه الأكمل:–

ظاهرا و باطنا بأركانها و شروطها و خشوعها و سائر مكملاتها

(إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا)مفروضا فى وقته

*فدل ذلك على فرضيتها و أن لها وقتا لا تصح إلا به و هو هذه الأوقات التى قد تقررت عند المسلمين :– صغيرهم و كبيرهم عالمهم و جاهلهم و أخذوا ذلك عن نبيهم محمد ﷺبقوله:–«صلوا كما رأيتمونى أصلى»

و دل قوله:(عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)على:–أن الصلاة ميزان الإيمان و على حسب إيمان العبد تكون صلاته و تتم و تكمل

*و يدل ذلك على:–

أن الكفار و إن كانوا ملتزمين لأحكام المسلمين كأهل الذمة – أنهم لا يخاطبون بفروع الدين كالصلاة و لا يؤمرون بها بل و لا تصح منهم ما داموا على كفرهم و إن كانوا يعاقبون عليها و على سائر الأحكام فى الآخرة

103

﴿كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾

كنتُ متهاونةً في أداء الصلاة رغم حرصي الشديد أن يحافظ عليها أبنائي، وقد راقبتني ابنتي ذات السنوات العشر دون علمٍ مني، فعلِمَتْ أنني أتهاون في الصَّلاة، ثم حدث بيني وبينها هذا الحوار الذي كانت فيه سببًا بعد الله في هدايتي:

– قالت لي: أمي؛ ما جزاء من ترك الصلاة؟

– قلت: كافر ومصيره إلى النار.

– قالت: ولماذا يترك الإنسان العاقل الصلاة؟

– قلت: ربما لأنه يعتقد أنه لا يوجد بعث ولا حساب، وأنه سينتهي بمجرد الموت.

– قالت: وهل هذا الاعتقاد صحيح؟

– قلت : كلا ! بل هو باطل، والصحيح أن هناك بعثًا ونشورًا وحسابًا وجزاءً وجنةً ونارًا!

– قالت لي : يا أماه؛ وما فائدة هذا الاعتقاد إذا لم يظهر أثره في سلوك الإنسان وتصرفاته؟ وفي أدائه للصلاة ومحافظته عليها في أوقاتها؟ ألم يقل سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾[1]!! النساء: ١٠٣.

فتأملت كلامها فوجدت أنه الحق، وتأثرت به فأصبحت –ولله الحمد– بعد هذا الحوار من المُحافظات على الصلوات والسنن الرواتب، أسأل الله أن يثبتني على ذلك.

(وَلَا تَهِنُوا۟)تضعفوا و لا تكسلوا(فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ)عدوكم من الكفار أى:– في جهادهم و المرابطة على ذلك فإن وَهَن القلب مستدع لوَهَن البدن و ذلك يضعف عن مقاومة الأعداء.

بل كونوا أقوياء نشيطين فى قتالهم(إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ) آل عمران: ١٤٠

(إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ)

ثم ذكر ما يقوى قلوب المؤمنين فذكر شيئين:–

الأول: أن ما يصيبكم من الألم و التعب و الجراح و نحو ذلك فإنه يصيب أعداءكم فليس من المروءة الإنسانية و الشهامة الإسلامية أن تكونوا أضعف منهم و أنتم وإياهم قد تساويتم فيما يوجب ذلك لأن العادة الجارية لا يضعف إلا من توالت عليه الآلام و انتصر عليه الأعداء على الدوام لا من يدال مرة و يدال عليه أخرى.

الأمر الثاني:–(وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ)فترجون الفوز بثوابه و النجاة من عقابه

***بل خواص المؤمنين لهم :–**

1–مقاصد عالية 2–و آمال رفيعة من نصر دين الله و إقامة شرعه و اتساع دائرة الإسلام

3-و هداية الضالين 4-و قمع أعداء الدين

*فهذه الأمور توجب للمؤمن المصدق:-

1-زيادة القوة 2-و تضاعف النشاط 3-و الشجاعة التامة

لأن من يقاتل و يصبر على نيل عزه الدنيوى إن ناله ليس كمن يقاتل لنيل السعادة الدنيوية و الأخروية و الفوز برضوان الله و جنته فسبحان من فاوت بين العباد و فرق بينهم بعلمه و حكمته

و لهذا قال:-(وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)كامل العلم كامل الحكمة﴿١٠٤﴾

الأمر بالعدل و القسط 105-113

(إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ)أيها النبى(ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ)

محفوظًا فى إنزاله من الشياطين أن يتطرق إليه منهم باطل بل نَزَلَ بالحق و مشتملا أيضا على الحق

فأخباره صدق و أوامره و نواهيه عدل(وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا)

و أخبر أنه أنزله (لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ)

و فى الآية الأخرى:-(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِم) .

فيحتمل أن هذه الآية فى الحكم بين الناس فى مسائل النزاع و الاختلاف و تلك فى تبيين جميع الدين و أصوله و فروعه

*و يحتمل أن الآيتين كلتيهما معناهما واحد فيكون الحكم بين الناس هنا يشمل الحكم بينهم فى الدماء و الأعراض و الأموال و سائر الحقوق و فى العقائد و فى جميع مسائل الأحكام.

(بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ)لا بهواك بل بما علَّمك الله و ألهمك كقوله تعالى:-(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى)

و فى هذا دليل :-

1-على عصمته ﷺفيما يُبَلِّغ عن الله من جميع الأحكام و غيرها

2-و أنه يشترط فى الحاكم العلم و العدل لقوله: (بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ)و لم يقل: بما رأيت.

و رتب أيضا الحكم بين الناس على معرفة الكتاب

*و لما أمر الله بالحكم بين الناس المتضمن للعدل و القسط :-

نهاه عن:-الجور و الظلم الذى هو ضد العدل فقال:-(وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمًا)

لا تخاصم عن مَن عرفت خيانته من مدع ما ليس له أو منكرٍ حقا عليه سواء علم ذلك أو ظنه.

*ففى هذا دليل على:-

تحريم الخصومة فى باطل و النيابة عن المبطل في الخصومات الدينية و الحقوق الدنيوية.

*و يدل مفهوم الآية على :-

جواز الدخول فى نيابة الخصومة لمن لم يعرف منه ظلم

*البخارى 2680 عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺقَالَ:-
إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَ لَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ(أفطن و أفصح ببيان حجته وإظهار أن الحق له)مِنْ بَعْضٍ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ
بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ:- فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فَلاَ يَأْخُذْهَا ﴿١٠٥﴾

وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ
وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾
هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ
يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾
وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾
وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ
وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ
وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

(وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ)مما صدر منك إن صدر.

(إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا)

أى:1–يغفر الذنب العظيم لمن استغفره و تاب إليه و أناب

2–و يوفقه للعمل الصالح بعد ذلك الموجِب لثوابه و زوال عقابه106

(وَلَا تُجَٰدِلْ)تدافع(عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ) يخونون أنفسهم بمعصية الله.

*« الاختيان » و « الخيانة » بمعنى:–الجناية و الظلم و الإثم

و هذا يشمل النهى عن المجادلة عن من أذنب و توجه عليه عقوبة مـن:–حد أو تعزير

فإنه لا يجادل عنه بدفع ما صدر منه من الخيانة أو بدفع ما ترتب على ذلك من العقوبة الشرعية.

(إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا)مَن عَظُمَتْ خيانته(أَثِيمًا)من كثر ذنبه

أي: كثير الخيانة و الإثم و إذا انتفى الحب ثبت ضده و هو البُغْض و هذا كالتعليل للنهى المتقدم107

*ثم ذكر عن هؤلاء الخائنين أنهم (يَسْتَخْفُونَ)يستترون(مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ)

و هذا من ضعف الإيمان و نقصان اليقين أن تكون مخافة الخلق عندهم أعظم من مخافة الله

فيحرصون بالطرق المباحة و المحرمة على عدم الفضيحة عند الناس و هم مع ذلك قد بارزوا الله بالعظائم

و لم يبالوا بنظره و اطلاعه عليهم

و هو معهم بالعلم فى جميع أحوالهم خصوصًا فى حال:-(إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ)

1-تبييتهم ما لا يرضيه من القول من تبرئة الجانى و رمى البرىء بالجناية

2-و السعى فى ذلك للرسول ﷺ ليفعل ما بيتوه.

*فقد جمعوا بين عدة جنايات و لم يراقبوا رب الأرض و السماوات المطلع على سرائرهم و ضمائرهم

و لهذا توعدهم تعالى بقوله:-(وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا)قد أحاط بذلك علما

و مع هذا لم يعاجلهم بالعقوبة بل استأنى بهم و عرض عليهم التوبة و حذرهم من الإصرار على ذنبهم الموجب للعقوبة البليغة108

◄ آيةٌ غيّرت حياتي!

غيرت آيةٌ قرأتُها ذاتَ يومٍ مجرى حياتي كله، وهي قوله تعالى: ﴿ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ ﴾(٢) النساء: ١٠٨

لقد كنتُ في معصية الله عز وجل ثلاث سنوات كاملة، حاولت أن أترك المعصية لكني ما استطعت! وجلستُ يوما أبكي بشدة، وأناجي ربي، فسمعتُ الآية أعلاه، فانشرح لها صدري، وتملَّكني الحياء من ربي عز وجل، وسألتُ نفسي حينها بصدق: هل أقبل أن يراني أبي أو أمي أو أيُّ أحد في هذه الدنيا على ما أنا فيه؟ أو حتى أن يسمعوا بما أفعل؟

وكان جوابي الأكيد لنفسي : لا، وألفُ لا...، فإن كنتُ قد استحييتُ من العباد فكيف برب العباد وهو المطلع على كل شيء! فاستحييت من نظره سبحانه إليّ وأنا أعصيه، وقررتُ أن أتركَ ما أنا فيه، ومن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرا منه، وبمنة من الله وفضل تركتُ المعصية، وها أنا أنعم بالسعادة بفضل ربي منذ سنوات.

(هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ)هبكم أيها المؤمنون(جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا)

و دفع عنهم جدالُكم بعض ما تحذرون من العار و الفضيحة عند الخَلْق فماذا يغنى عنهم و ينفعهم؟

(فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا)

و من يجادل الله عنهم يوم القيامة حين تتوجه عليهم الحجة و تشهد عليهم ألسنتهم و أيديهم و أرجلهم بما كانوا يعملون؟ (يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ).

فمن يجادل عنهم من يعلم السر و أخفى و من أقام عليهم من الشهود ما لا يمكن معه الإنكار؟

كقوله (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ) فاطر: ١٨

و فى هذه الآية إرشاد إلي:-

المقابلة بين ما يتوهم من مصالح الدنيا المترتبة على ترك أوامر الله أو فعل مناهيه و بين ما يفوت من ثواب الآخرة أو يحصل من عقوباتها.

فيقول من أمرته نفسه بترك أمر الله ها أنت تركت أمره كسلا و تفريطا فما النفع الذي انتفعت به؟

و ماذا فاتك من ثواب الآخرة؟

و ماذا ترتب على هذا الترك من الشقاء و الحرمان و الخيبة و الخسران؟

و كذلك إذا دعته نفسه إلى ما تشتهيه من الشهوات المحرمة

قال لها: هبك فعلت ما اشتهيت فإن لذته تنقضى و يعقبها من الهموم و الغموم و الحسرات

و فوات الثواب وحصول العقاب – ما بعضه يكفى العاقل فى الإحجام عنها.

و هذا من أعظم ما ينفع العبدَ تدبرُه و هو خاصة العقل الحقيقى.

بخلاف الذى يدعى العقل و ليس كذلك فإنه بجهله و ظلمه يؤثر اللذة الحاضرة و الراحة الراهنة و لو ترتب عليها ما ترتب.و الله المستعان.

(وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا)و سمى« سوءًا »لكونه يسوء عامله بعقوبته و لكونه فى نفسه سيئًا غير حسن.

و اعلم أن عمل السوء عند الإطلاق يشمل سائر المعاصى الصغيرة و الكبيرة

(أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ)كمن تجرأ على المعاصى و اقتحم على الإثم

و كذلك ظلم النفس عند الإطلاق يشمل ظلمها بالشرك فما دونه.

و لكن عند اقتران أحدهما بالآخر قد يفسر كل واحد منهما بما يناسبه فيفسر عمل السوء هنا بالظلم الذى يسوء الناس و هو ظلمهم فى دمائهم و أموالهم و أعراضهم.

و يفسر ظلم النفس بالظلم و المعاصى التي بين الله و بين عبده

*و سمى ظلم النفس « ظلما » لأن نفس العبد ليست ملكا له يتصرف فيها بما يشاء و إنما هى ملك لله تعالى قد جعلها أمانة عند العبد و أمره أن يقيمها على طريق العدل بإلزامها للصراط المستقيم علمًا و عملا فيسعى فى تعليمها ما أمر به و يسعى في العمل بما يجب فسعيه في غير هذا الطريق ظلم لنفسه و خيانة و عدول بها عن العدل الذى ضده الجور و الظلم

(ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا)

ثم استغفر الله استغفارا تاما يستلزم :-

1-الإقرار بالذنب 2-و الندم عليه 3-و الإقلاع 4-و العزم على أن لا يعود.

فهذا قد وعده من لا يخلف الميعاد بالمغفرة و الرحمة. فيغفر له ما صدر منه من الذنب

و يزيل عنه ما ترتب عليه من النقص و العيب و يعيد إليه ما تقدم من الأعمال الصالحة

و يوفقه فيما يستقبله من عمره و لا يجعل ذنبه حائلا عن توفيقه لأنه قد غفره و إذا غفره غفر ما يترتب علي110

ثم قال:–(وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ)هذا يشمل كل ما يؤثم من صغير و كبير

فمن كسب سيئة فإن عقوبتها الدنيوية و الأخروية على نفسه لا تتعداها إلى غيرها كما قال تعالى:

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ)

لكن إذا ظهرت السيئات فلم تنكر عمت عقوبتها و شمل إثمها فلا تخرج أيضا عن حكم هذه الآية الكريمة

لأن من ترك الإنكار الواجب فقد كسب سيئة.

و في هذا بيان عدل الله و حكمته أنه لا يعاقب أحدا بذنب أحد و لا يعاقب أحدا أكثر من العقوبة الناشئة عن

ذنبه و لهذا قال: (وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا)له العلم الكامل و الحكمة التامة.

*و من علمه و حكمته أنه يعلم الذنب و ما صدر منه و السبب الداعي لفعله و العقوبة المترتبة على فعله

و يعلم حالة المذنب أنه إن صدر منه الذنب بغلبة دواعي نفسه الأمارة بالسوء مع إنابته إلى ربه في كثير من

أوقاته أنه سيغفر له و يوفقه للتوبة.

و إن صدر منه بتجرئه على المحارم استخفافا بنظر ربه و تهاونا بعقابه فإن هذا بعيد من المغفرة بعيد من التوفيق

للتوبة111

(وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً)ذنبا كبيرا

(أَوۡ إِثۡمٗا)ما دون ذلك.

(ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ)يتهم بذنبه

(بَرِيٓـٔٗا)من ذلك الذنب و إن كان مذنبا.

(فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ)فقد حمل فوق ظهره(بُهۡتَٰنٗا)للبريء (وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا)ظاهرًا بينًا

و هذا يدل على أن ذلك من كبائر الذنوب و موبقاتها

فإنه قد جمع عدة مفاسد:–

1–كسب الخطيئة و الإثم

2–ثم رَمْي مَن لم يفعلها بفعلها

3–ثم الكذب الشنيع بتبرئة نفسه و اتهام البريء

4–ثم ما يترتب على ذلك من العقوبة الدنيوية تندفع عمن وجبت عليه و تقام على من لا يستحقها.

5–ثم ما يترتب على ذلك أيضا من كلام الناس في البريء إلى غير ذلك من المفاسد التي نسأل الله العافية منها

و من كل شر112

*ثم ذكر منته على رسوله بحفظه وعصمته ممن أراد أن يضله فقال:-

(وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ)

و ذلك أن هذه الآيات الكريمات قد ذكر المفسرون أن سبب نزولها:-

أن أهل بيت سرقوا فى المدينة فلما اطلع على سرقتهم خافوا الفضيحة و أخذوا سرقتهم فرموها ببيت من هو بريء من ذلك.

و استعان السارق بقومه أن يأتوا رسول الله ﷺو يطلبوا منه أن يبرئ صاحبهم على رءوس الناس

و قالوا: إنه لم يسرق و إنما الذي سرق من وجدت السرقة ببيته و هو البرىء. فهَمَّ رسول الله ﷺأن يبرئ صاحبهم

فأنزل الله هذه الآيات تذكيرا و تبيينا لتلك الواقعة و تحذيرا للرسول ﷺمن المخاصمة عن الخائنين

فإن المخاصمة عن المبطل من الضلال

فإن الضلال نوعان: –

1–ضلال فى العلم و هو الجهل بالحق.

2–و ضلال فى العمل و هو العمل بغير ما يجب.

فحفظ الله رسوله عن هذا النوع من الضلال كما حفظه عن الضلال فى الأعمال .

و أخبر أن كيدهم و مكرهم يعود على أنفسهم كحالة كل ماكر فقال:-

(وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ)

لكون ذلك المكر و ذلك التحيل لم يحصل لهم فيه مقصودهم و لم يحصل لهم إلا الخيبة و الحرمان و الإثم و الخسران.

و هذه نعمة كبيرة على رسوله ﷺتتضمن النعمة بالعمل و هو التوفيق لفعل ما يجب و العصمة له عن كل محرم.

ثم ذكر نعمته عليه بالعلم فقال:-(وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ)

هذا القرآن العظيم و الذكر الحكيم الذى فيه تبيان كل شيء و علم الأولين و الآخِرين.

(وَٱلْحِكْمَةَ):-إما السُّنَّة التى قد قال فيها بعض السلف:-إن السُّنَّة تنزل عليه كما ينزل القرآن.

*و إما معرفة أسرار الشريعة الزائدة على معرفة أحكامها و تنزيل الأشياء منازلها و ترتيب كل شيء بحسبه.

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ)كقوله(وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ)الشورى: ٥٢

و هذا يشمل جميع ما علمه الله تعالى. فإنه ﷺكما وصفه الله قبل النبوة بقوله:-

(مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَوَجَدَكَ ضَالا فَهَدَى).

*ثم لم يزل يوحى الله إليه و يعلمه و يكمله حتى ارتقى مقاما من العلم يتعذر وصوله على الأولين و الآخرين فكان أعلم الخلق على الإطلاق و أجمعهم لصفات الكمال و أكملهم فيها

و لهذا قال: (وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)

ففضله على الرسول محمد ﷺأعظم من فضله على كل مخلوق و أجناس الفضل الذى قد فضله الله به لا يمكن استقصاؤها و لا يتيسر إحصاؤها113

۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَـٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ
وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾
وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ
نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ
لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَـٰثًا
وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَـٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾
وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَـٰمِ
وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَـٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ
فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾
أُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾

زلات اللسان و خطر الشرك 114-121

(لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ)

مما يتناجى به الناس و يتخاطبون و إذا لم يكن فيه خير فإما لا فائدة فيه كـ:-فضول الكلام المباح

و إما شر و مضرة محضة كـــ:-الكلام المحرم بجميع أنواعه

*ثم استثنى تعالى فقال:-

(إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ)من مال أو علم أو أى نفع كان بل لعله يدخل فيه العبادات القاصرة كـ:-

التسبيح و التحميد و نحوه كما قال النبى ﷺ:-«إن بكل تسبيحة صدقة و كل تكبيرة صدقة و كل تهليلة صدقة و أمر بالمعروف صدقة و نهى عن المنكر صدقة و فى بضع أحدكم صدقة»الحديث.

*أبي داود 4919 عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-
«أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَ الصَّلَاةِ وَ الصَّدَقَةِ؟» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ
قَالَ: «إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ و فَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ الْحَالِقَةُ»

*البخارى2692-عن أُمَّ كُلْثُومٍ بِنْتَ عُقْبَةَ قَالَت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:-
«لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِى يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَنْمِى خَيْرًا(من نمى الحديث إذا رفعه وبلغه على وجه الإصلاح وطلب الخير)أَوْ يَقُولُ خَيْرًا»

(أَوْ مَعْرُوفٍ)و هو:-الإحسان و الطاعة و كل ما عرف فى الشرع و العقل حسنه

و إذا أطلق الأمر بالمعروف من غير أن يقرن بالنهى عن المنكر دخل فيه النهى عن المنكر

*و ذلك لأن ترك المنهيات من المعروف و أيضا لا يتم فعل الخير إلا بترك الشر.

و أما عند الاقتران فـــ:–يفسر المعروف بفعل المأمور و المنكر بترك المنهى.

(أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ)

*و الإصلاح لا يكون إلا بين متنازعين متخاصمين

*و النزاع و الخصام و التغاضب يوجب من الشر و الفرقة ما لا يمكن حصره

*فلذلك حث الشارع على الإصلاح بين الناس في:–الدماء و الأموال و الأعراض بل و فى الأديان

كما قال تعالى:(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا)و قال تعالى:–(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ)الآية.

و قال تعالى:–(وَالصُّلۡحُ خَيۡرٌۗ)

*و الساعى فى الإصلاح بين الناس أفضل من:–القانت بالصلاة و الصيام و الصدقة

و المصلح لا بد أن يصلح الله سعيه و عمله.

كما أن الساعى فى لإفساد لا يصلح الله عمله و لا يتم له مقصوده كما قال تعالى:–

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ)فهذه الأشياء حيثما فعلت فهى خير كما دل على ذلك الاستثناء.

و لكن كمال الأجر و تمامه بحسب النية و الإخلاص و لهذا قال:–

(وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا)

فلهذا ينبغي للعبد أن يقصد وجه الله تعالى و يخلص العمل لله في كل وقت

و فى كل جزء من أجزاء الخير ليحصل له بذلك الأجر العظيم و ليتعود الإخلاص فيكون من المخلصين و ليتم له الأجر سواء تم مقصوده أم لا لأن النية حصلت و اقترن بها ما يمكن من العمل(١١٤)

(وَمَن يُشَاقِقِ)يخالف(ٱلرَّسُولَ)ﷺ و يعانده فيما جاء به

(مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ)بالدلائل القرآنية و البراهين النبوية.

(وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ)طريق(ٱلۡمُؤۡمِنِينَ)فى عقائدهم و أعمالهم

*هَذَا مُلَازِمٌ لِلصِّفَةِ الْأُولَى وَ لَكِنْ قَدْ تَكُونُ الْمُخَالَفَةُ لِنَصِّ الشَّارِعِ وَ قَدْ تَكُونُ لِمَا أَجْمَعَتْ عَلَيْهِ الْأُمَّةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ فِيمَا عُلِمَ اتِّفَاقُهُمْ عَلَيْهِ تَحْقِيقًا فَإِنَّهُ قَدْ ضُمِنت لَهُمُ الْعِصْمَةُ فِي اجْتِمَاعِهِمْ مِنَ الْخَطَأِ تشريفًا لهم و تعظيما لنبيهم ﷺ.

وَ الَّذِى عَوَّلَ عَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الِاحْتِجَاجِ عَلَى كَوْنِ الْإِجْمَاعِ حُجَّةً تَحرُم مُخَالَفَتُهُ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ بَعْدَ التَّرَوِّى وَ الْفِكْرِ الطَّوِيلِ. وَ هُوَ مِنْ أَحْسَنِ الِاسْتِنْبَاطَاتِ وَ أَقْوَاهَا

(نُوَلِّهِۦ)نتركه و(مَا تَوَلَّىٰ)اختاره لنفسه و نخذله فلا نوفقه للخير لكونه رأى الحق و علمه و تركه

فجزاؤه من الله عدلا أن:–

1–يبقيه فى ضلاله حائرا 2–و يزداد ضلالا إلى ضلاله.

كما قال تعالى:–(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)و قال تعالى:–(وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

و يدل مفهومها على أن:–

من لم يشاقق الرسول و يتبع سبيل المؤمنين بأن كان قصده وجه الله و اتباع رسوله و لزوم جماعة المسلمين

ثم صدر منه من الذنوب أو الهّم بها ما هو من:–1–مقتضيات النفوس 2–و غلبات الطباع

➔فإن الله لا يوليه نفسه و شيطانه بل :–1–يتداركه بلطفه 2–و يمن عليه بحفظه 3–و يعصمه من السوء

كما قال تعالى عن يوسف ﷺ:–(كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ)

أى:–بسبب إخلاصه صَرَفْنَا عنه السوء و كذلك كل مخلص كما يدل عليه عموم التعليل.

(وَنُصْلِهِۦ)نعذبه فى(جَهَنَّمَ)عذابا عظيما.

*كقوله(فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ) القلم:٤٤(فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ) الصف: ٥

(وَسَآءَتْ مَصِيرًا)مرجعا له و مآلا.

(إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ)

و هذا الوعيد المرتب على الشقاق و مخالفة المؤمنين مراتب لا يحصيها إلا الله بحسب حالة الذنب صغرا و كبرا فمنه ما يخلد فى النار و يوجب جميع الخذلان.

و منه ما هو دون ذلك فلعل الآية الثانية كالتفصيل لهذا المطلق و هو:–أن الشرك لا يغفره الله تعالى لتضمنه:–

1–القدح فى رب العالمين فى وحدانيته

2–و تسوية المخلوق الذى لا يملك لنفسه ضرا و لا نفعا بمن :–هو مالك النفع و الضر

الذى ما من نعمة إلا منه و لا يدفع النقم إلا هو الذى له الكمال المطلق من جميع الوجوه و الغنى التام بجميع وجوه الاعتبارات

فمن أعظم الظلم و أبعد الضلال عدم إخلاص العبادة لمن هذا شأنه و عظمته و صرف شيء منها للمخلوق الذي ليس له من صفات الكمال شيء و لا له من صفات الغنى شيء بل ليس له إلا العدم.

عدم الوجود و عدم الكمال و عدم الغنى و الفقر من جميع الوجوه

و أما ما دون الشرك من الذنوب و المعاصى فهو تحت المشيئة:–

1–إن شاء الله غفره برحمته و حكمته

2–و إن شاء عذب عليه و عاقب بعدله و حكمته

*و قد اسْتُدِلَ بهذه الآية الكريمة على أن:–إجماع هذه الأمة حجة و أنها معصومة من الخطأ

و وجه ذلك:– أن الله توعد من خالف سبيل المؤمنين بالخذلان و النار و(سبيل المؤمنين)

مفرد مضاف يشمل سائر ما المؤمنون عليه من العقائد و الأعمال.

فإذا اتفقوا على إيجاب شيء أو استحبابه أو تحريمه أو كراهته أو إباحته –فهذا سبيلهم

*فمن خالفهم في شيء من ذلك بعد انعقاد إجماعهم عليه فقد اتبع غير سبيلهم.و يدل على ذلك قوله تعالى:–

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

و وجه الدلالة منها: –

أن الله تعالى أخبر أن المؤمنين من هذه الأمة لا يأمرون إلا بالمعروف

*فإذا اتفقوا على إيجاب شيء أو استحبابه فهو مما أمروا به فيتعين بنص الآية أن يكون معروفا و لا شيء بعد المعروف غير المنكر

*و كذلك إذا اتفقوا على النهي عن شيء فهو مما نهوا عنه فلا يكون إلا منكرا و مثل ذلك قوله تعالى:–

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا)عدلا خيارا(لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ)أي:– في كل شيء

*فإذا شهدوا على حكم بأن الله أمر به أو نهى عنه أو أباحه فإن شهادتهم معصومة لكونهم عالمين بما شهدوا به عادلين في شهادتهم

*فلو كان الأمر بخلاف ذلك لم يكونوا عادلين في شهادتهم و لا عالمين بها.

و مثل ذلك قوله تعالى:-(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ)

يفهم منها أن ما لم يتنازعوا فيه بل اتفقوا عليه أنهم غير مأمورين برده إلى الكتاب و السنة و ذلك لا يكون إلا موافقا للكتاب و السنة فلا يكون مخالفا.

فهذه الأدلة و نحوها تفيد القطع أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة

(وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ١١٦)

و لهذا بيَّن الله قبح ضلال المشركين بقوله:–(إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ)من دون الله

(إِلَّآ إِنَٰثًا) أوثانا و أصناما مسميات بأسماء الإناث كـ«العزى» و «مناة» و نحوهما

و من المعلوم أن الاسم دال على المسمى. فإذا كانت أسماؤها أسماء مؤنثة ناقصة دل ذلك على:–

1–نقص المسميات بتلك الأسماء

2–و فقدها لصفات الكمال

كما أخبر الله تعالى في غير موضع من كتابه أنها لا تخلق و لا ترزق و لا تدفع عن عابديها

بل و لا عن نفسها؛ نفعا و لا ضرا و لا تنصر أنفسها ممن يريدها بسوء و ليس لها أسماع و لا أبصار و لا أفئدة

فكيف يُعبد من هذا وصفه و يترك الإخلاص لمن له :–

الأسماء الحسنى و الصفات العليا و الحمد و الكمال و المجد و الجلال و العز و الجمال و الرحمة و البر و الإحسان و الانفراد بالخلق و التدبير و الحكمة العظيمة فى الأمر و التقدير؟

« هل هذا إلا من أقبح القبيح الدال على نقص صاحبه و بلوغه من الخسة و الدناءة أدنى ما يتصوره متصور أو يصفه واصف؟ »

و مع ذلك فعبادتهم إنما صورتها فقط لهذه الأوثان الناقصة.

*قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ: {إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلا إِنَاثًا} قَالَ: مَعَ كُلِّ صَنَمٍ جنيَّة.

(وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا)و بالحقيقة ما عبدوا غير الشيطان الذي هو عدوهم الذي يريد إهلاكهم و يسعى في ذلك بكل ما يقدر عليه الذي هو في غاية البعد من الله

كقوله (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ)يس: ٦٠

(مَّرِيدًا)متمردًا على الله ﴿١١٧﴾

(لَّعَنَهُ)أبعده(ٱللَّهُ)عن رحمته فكما أبعده الله من رحمته يسعى فى إبعاد العباد عن رحمة الله

(إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

و لهذا أخبر الله عن سعيه فى إغواء العباد و تزيين الشر لهم و الفساد و أنه قال لربه مقسما:-

(وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا)مقدرا.

علم اللعين أنه لا يقدر على إغواء جميع عباد الله و أن عباد الله المخلصين ليس له عليهم سلطان و إنما سلطانه على من تولاه و آثر طاعته على طاعة مولاه.و أقسم في موضع آخر ليغوينهم

(لأغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)

فهذا الذى ظنه الخبيث و جزم به أخبر الله تعالى بوقوعه بقوله:-

(وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) 118

*و هذا النصيب المفروض الذى أقسم لله إنه يتخذهم ذكر ما يريد بهم و ما يقصده لهم بقوله:

(وَلَأُضِلَّنَّهُمْ)عن الصراط المستقيم ضلالا فى:-العلم و ضلالا فى:-العمل

(وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ)أُزَيِّنُ لَهُمْ تَرْكَ التَّوْبَةِ وَ أَعِدُهُمُ الْأَمَانِيَ وَ آمُرُهُمْ بِالتَّسْوِيفِ وَ التَّأْخِيرِ وَ أَغُرُّهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ.

*أى: مع الإضلال لأمنينهم أن ينالوا ما ناله المهتدون.

و هذا هو الغرور بعينه فلم يقتصر على مجرد إضلالهم حتى زين لهم ما هم فيه من الضلال.

و هذا زيادة شر إلى شرهم حيث عملوا أعمال أهل النار الموجبة للعقوبة و حسبوا أنها موجبة للجنة و اعتبر ذلك باليهود والنصارى و نحوهم فإنهم كما حكى الله عنهم

(وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ)(كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ)

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا* الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)

و قال تعالى عن المنافقين إنهم يقولون يوم القيامة للمؤمنين:-(أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ)

(وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ)فليقطعن

(ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ)كالبحيرة و السائبة و الوصيلة و الحام فنبه ببعض ذلك على جميعه

و هذا نوع من الإضلال يقتضى تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله و يلتحق بذلك من الاعتقادات الفاسدة و الأحكام الجائرة ما هو من أكبر الإضلال.

(وَلَآمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ)

*البخاري4886 - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ:-

«لَعَنَ اللَّهُ الْوَاشِمَاتِ(جمع واشمة اسم فاعلة من الوشم و هو غرز إبرة أو نحوها في الجلد حتى يسيل منه الدم ثم يحشى الموضع بكحل أو نحوه فيتلون الجلد ولا يزول بعد ذلك أبدا)وَ الْمُوتَشِمَاتِ(جمع موتشمة وهي التي يفعل فيها الوشم)وَ الْمُتَنَمِّصَاتِ(جمع متنمصة وهى التى تطلب إزالة شعر وجهها ونتفه و التى تزيله و تنتفه تسمى نامصة)وَ الْمُتَفَلِّجَاتِ(جمع متفلجة وهى التى تبرد أسنانها لتفترق عن بعضها)لِلْحُسْنِ(لأجل الجمال) الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللَّهِ»

(بما سبق ذكره لأنه تغيير وتزوير)فَبَلَغَ ذَلِكَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي أَسَدٍ يُقَالُ لَهَا أُمُّ يَعْقُوبَ فَجَاءَتْ فَقَالَتْ:-

إِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكَ أَنَّكَ لَعَنْتَ كَيْتَ وَ كَيْتَ(كناية عن كلام قيل)فَقَالَ:-

وَ مَا لِي أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَ مَنْ هُوَ فِي كِتَابِ اللَّهِ

فَقَالَتْ:-لَقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ اللَّوْحَيْنِ(أي القرآن المكتوب ما بين دفتي المصحف)فَمَا وَجَدْتُ فِيهِ مَا تَقُولُ قَالَ: لَئِنْ كُنْتِ قَرَأْتِيهِ لَقَدْ وَجَدْتِيهِ أَمَا قَرَأْتِ:-{وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} [الحشر: 7]؟ قَالَتْ:-

بَلَى قَالَ: فَإِنَّهُ قَدْ نَهَى عَنْهُ قَالَتْ:-فَإِنِّي أَرَى أَهْلَكَ يَفْعَلُونَهُ قَالَ:-

فَاذْهَبِي فَانْظُرِي فَذَهَبَتْ فَنَظَرَتْ فَلَمْ تَرَ مِنْ حَاجَتِهَا شَيْئًا(لم تشاهد أم يعقوب من الذي ظنته في زوج ابن مسعود رضي الله عنهما شيئا)

فَقَالَ:-لَوْ كَانَتْ كَذَلِكَ مَا جَامَعْتُهَا(ما صاحبتنا بل كنا نطلقها ونفارقها وفي نسخة (ما جامعتها) والمعنى واحد)

*و هذا يتناول تغيير الخلقة الظاهرة بـــ:-الوشم و الوشر و النمص و التفلج للحسن و نحو ذلك مما أغواهم به الشيطان فغيروا خلقة الرحمن.

*و ذلك يتضمن :-

1-التسخط من خلقته 2-و القدح فى حكمته 3-و اعتقاد أن ما يصنعون بأيديهم أحسن من خلقة الرحمن

4-و عدم الرضا بتقديره و تدبيره

*و يتناول أيضا تغيير الخلقة الباطنة:-

فإن الله تعالى خلق عباده حنفاء مفطورين على قبول الحق و إيثاره فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن هذا الخلق الجميل و زينت لهم الشر و الشرك و الكفر و الفسوق و العصيان.

*فإن كل مولود يولد على الفطرة و لكن أبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه و نحو ذلك مما يغيرون به ما فطر الله عليه العباد من توحيده و حبه و معرفته.

فافترستهم الشياطين فى هذا الموضع افتراس السبع و الذئاب للغنم المنفردة.

*لولا لطف الله و كرمه بعباده المخلصين لجرى عليهم ما جرى على هؤلاء المفتونين و هذا الذى جرى عليهم من توليهم عن ربهم و فاطرهم و توليهم لعدوهم المريد لهم الشر من كل وجه فخسروا الدنيا و الآخرة و رجعوا بالخيبة و الصفقة الخاسرة(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)الروم: ٣٠

عَلَى قَوْلِ مَنْ جَعَلَ ذَلِكَ أَمْرًا أَىْ:-لَا تُبَدِّلُوا فِطْرَةَ اللَّهِ وَ دَعُوا النَّاسَ عَلَى فِطْرَتِهِمْ كما فى الحديث:-

*البخارى1359 -عن أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ:- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم

«مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ»ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه:-

{فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ}[الروم: 30]

(لا تبديل لخلق الله) لا تفاوت بين الناس فى أصل خلقتهم ولا يستطيع أحد أن يغير طبيعة نفوسهم حقيقة (القيم) المستقيم والمقوم لأمور الناس

و لهذا قال:-(وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا)

و أى خسار أبين و أعظم ممن خسر دينه و دنياه و أوبقته معاصيه و خطاياه؟!!

فحصل له الشقاء الأبدى و فاته النعيم السرمدى.

كما أن من تولى مولاه و آثر رضاه ربح كل الربح و أفلح كل الفلاح و فاز بسعادة الدارين و أصبح قرير العين فلا مانع لما أعطيت و لا معطى لما منعت اللهم تولنا فيمن توليت و عافنا فيمن عافيت119

ثم قال: (يَعِدُهُمْ)يعد الشيطان من يسعى فى إضلالهم و يخوفهم عند إيثار مرضاة الله بكل ما يمكن و ما لا يمكن مما يدخله في عقولهم حتى يكسلوا عن فعل الخير

*و الوعد يشمل حتى الوعيد كما قال تعالى:(الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ)فإنه يعدهم إذا أنفقوا فى سبيل الله افتقروا و يخوفهم إذا جاهدوا بالقتل و غيره كما قال تعالى:-(إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ) الآية.

(وَيُمَنِّيهِمْ)يغريهم –و كذلك يمنيهم الأمانى الباطلة التى هى عند التحقيق كالسراب الذي لا حقيقة له

و لهذا قال:-(وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا)خديعة لا صحة لها و لا دليل عليه120

(أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ)من انقاد للشيطان و أعرض عن ربه و صار من أتباع إبليس و حزبه مستقرهم النار.

(وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا)مخلصا و لا ملجأ بل هم خالدون فيها أبد الآباد.

كقوله(وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)إبراهيم: ٢٢ ١٢١

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ
وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴿١٢٢﴾ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ
مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٢٣﴾
وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴿١٢٤﴾
وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ
وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا ﴿١٢٦﴾
وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ
ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ
وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا ﴿١٢٧﴾

*و لما بين مآل الأشقياء أولياء الشيطان ذكر مآل السعداء أوليائه فقال:-(وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ) بالله و ملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر و القَدَر خيره و شره على الوجه الذى أمروا به علما و تصديقا و إقرارا.

جزاء العمل الصالح 122-126

(وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ)الناشئة عن الإيمان؟

و هذا يشمل سائر المأمورات مـــن:-واجب و مستحب

1-الذى على القلب

2-و الذى على اللسان

3-و الذى على بقية الجوارح.

كل له من الثواب المرتب على ذلك بحسب:-

1-حاله

2-و مقامه

3-و تكميله للإيمان و العمل الصالح.

و يفوته ما رتب على ذلك بحسب :-

1-ما أخل به من الإيمان و العمل و ذلك بحسب ما علم من حكمة الله و رحمته

و كذلك وعده الصادق الذي يعرف من تتبع كتاب الله و سنة رسوله.

و لهذا ذكر الثواب المرتب على ذلك بقوله:–(سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ)

فيها ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر

من أنواع:–

1–المآكل و المشارب اللذيذة

2–و المناظر العجيبة 3–و الأزواج الحسنة

4–و القصور 5–و الغرف المزخرفة

6–و الأشجار المتدلية 7–و الفواكه المستغربة

8–و الأصوات الشجية 9–و النعم السابغة

10–و تزاور الإخوان و تذكرهم ما كان منهم فى رياض الجنان

11–و أعلى من ذلك كله و أجلّ رضوان الله عليهم و تمتع الأرواح بقربه و العيون برؤيته و الأسماع بخطابه الذى ينسيهم كل نعيم و سرور و لولا الثبات من الله لهم لطاروا و ماتوا من الفرح و الحبور

فلله ما أحلى ذلك النعيم و ما أعلى ما أنالهم الرب الكريم و ماذا حصل لهم من كل خير و بهجة لا يصفه الواصفون و تمام ذلك و كماله الخلود الدائم فى تلك المنازل العاليات

و لهذا قال: (خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا)

فصدق الله العظيم الذى بلغ قولُه وحديثُه فى الصدق أعلى ما يكون

*و لهذا لما كان كلامه صدقا و خبره حقا←كان ما يدل عليه مطابقةً و تضمنًا و ملازمةً كل ذلك مراد من كلامه و كذلك كلام رسوله ﷺلكونه لا يخبر إلا بأمره و لا ينطق إلا عن وحيه

*النسائى1578 عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهقَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺيَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ: - يَحْمَدُ اللَّهَ وَ يُثْنِي عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ يَقُولُ:

«مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَ مَنْ يُضْلِلْهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ ﴿١٢٢﴾

*مسلم(2574) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ:-

لَمَّا نَزَلَتْ{مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ}[النساء: 123]بَلَغَتْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَبْلَغًا شَدِيدًا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-

«قَارِبُوا وَ سَدِّدُوا فَفِي كُلِّ مَا يُصَابُ بِهِ الْمُسْلِمُ كَفَّارَةٌ حَتَّى النَّكْبَةِ يُنْكَبُهَا أَوِ الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا»

*وَ الْمَعْنَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّ الدِّينَ لَيْسَ بِالتَّحَلِّي وَ لَا بِالتَّمَنِّي وَ لَيْسَ كُلّ مَنِ ادَّعَى شَيْئًا حَصَلَ لَهُ بِمُجَرَّدِ دَعْوَاهُ وَ لَا كُلُّ مَنْ قَالَ:-"إِنَّهُ هُوَ المُحق" سُمِعَ قَوْلُهُ بِمُجَرَّدِ ذَلِكَ حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنَ اللَّهِ بُرْهَانٌ؛

وَ لِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ}أَيْ:-

لَيْسَ لَكُمْ وَ لَا لَهُمُ النَّجَاةُ بِمُجَرَّدِ التَّمَنِّي بَلِ الْعِبْرَةُ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَ اتِّبَاعِ مَا شَرَعَهُ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ الْكِرَامِ؛

وَ لِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ:-{مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ}

*البخارى 5641 - عن أَبِي هُرَيْرَةَ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:

«مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ(تعب) وَ لاَوَصَبٍ(مرض)وَ لاَ هَمٍّ(كره لما يتوقعه من سوء) وَ لاَ حُزْنٍ(أسى على ما حصل له من مكروه في الماضي) وَ لاَ أَذًى(من تعدي غيره عليه) وَ لاَ غَمٍّ (ما يضيق القلب والنفس)حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ(ذنوبه)»

كقوله(فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ) الزلزلة: ٧ - ٨

(لَّيۡسَ)الأمر و النجاة و التزكية

(بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ)

هى:أحاديث النفس المجردة عن العمل المقترن بها دعوى مجردة لو عورضت بمثلها لكانت من جنسها.

(أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ)و هذا عامّ فى كل أمر فكيف بأمر الإيمان و السعادة الأبدية؟!

*فإن أمانى أهل الكتاب قد أخبر الله بها أنهم قالوا:–(لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ)

و غيرهم ممن ليس ينتسب لكتاب و لا رسول من باب أولى و أحرى.

و كذلك أدخل الله فى ذلك من ينتسب إلى الإسلام لكمال العدل و الإنصاف

*فإن مجرد الانتساب إلى أي دين كان لا يفيد شيئا إن لم يأت الإنسان ببرهان على صحة دعواه

فالأعمال تصدق الدعوى أو تكذبها و لهذا قال تعالى:–

(مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ)و هذا شامل لجميع العاملين لأن السوء شامل لأى ذنب كان:–

1–من صغائر الذنوب و كبائرها

2–و شامل أيضا لكل جزاء قليل أو كثير دنيوى أو أخروى.

*و الناس فى هذا المقام درجات لا يعلمها إلا الله فمستقل و مستكثر

*فمن كان عمله كله سوءا و ذلك لا يكون إلا كافرا.

فإذا مات من دون توبة جوزى بالخلود فى العذاب الأليم.

*و من كان عمله صالحا و هو مستقيم فى غالب أحواله و إنما يصدر منه بعض الأحيان بعض الذنوب الصغار

فما يصيبه من:–

1–الهم 2–و الغم 3–و الأذى

4–و بعض الآلام فى بدنه أو قلبه أو حبيبه أو ماله و نحو ذلك –

فإنها مكفرات للذنوب و هى مما يجزى به على عمله قيضها الله لطفا بعباده و بين هذين الحالين مراتب كثيرة.

و هذا الجزاء على عمل السوء العام مخصوص في غير التائبين

فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له كما دلت على ذلك النصوص.

(وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا)لإزالة بعض ما لعله يُتوهم أن من استحق المجازاة على عمله

قد يكون له ولى أو ناصر أو شافع يدفع عنه ما استحقه

فأخبر تعالى بانتفاء ذلك فليس له ولى يحصل له المطلوب و لا نصير يدفع عنه المرهوب إلا ربه و مليكه 123

(وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ)

دخل فى ذلك:-

1-سائر الأعمال القلبية و البدنية

2-و دخل أيضا كل عامل من إنس أو جن صغير أو كبير ذكر أو أنثى.

و لهذا قال:-(مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٌ)

و هذا شرط لجميع الأعمال لا تكون صالحة و لا تقبل و لا يترتب عليها الثواب و لا يندفع بها العقاب إلا بالإيمان.

فالأعمال بدون الإيمان كأغصان شجرة قُطِعَ أصلها و كبناء بني على موج الماء

فالإيمان هو الأصل و الأساس و القاعدة التى يبنى عليه كل شيء و هذا القيد ينبغى التفطن له فى كل عمل أطلق فإنه مقيد به.

(فَأُوْلَٰٓئِكَ)الذين جمعوا بين الإيمان و العمل الصالح

(يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ)المشتملة على ما تشتهى الأنفس و تلذ الأعين

(وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرًا)لا قليلا و لا كثيرا مما عملوه من الخير

بل يجدونه كاملا موفرا مضاعفا أضعافا كثيرة.

*وَ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْفَتِيلِ:-وَ هُوَ الْخَيْطُ الَّذِى فِي شِقِّ النَّوَاةِ وَ هَذَا النَّقِيرُ وَ هُمَا فِي نَوَاةِ التَّمْرَةِ وَ كَذَا الْقِطْمِيرُ وَ هُوَ:-اللِّفَافَةُ الَّتِى عَلَى نَوَاةِ التَّمْرَةِ الثَّلَاثَةُ فِي القرآن 124

(وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينًا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ)لا أحد أحسن من دين من جمع بين الإخلاص للمعبود

و هو إسلام الوجه لله الدال على:-

1-استسلام القلب و توجهه و إنابته و إخلاصه

2-و توجه الوجه و سائر الأعضاء لله.

(وَهُوَ)مع هذا الإخلاص و الاستسلام

(مُحۡسِنٌ)متبع لشريعة الله التي أرسل بها رسله و أنزل كتبه و جعلها طريقا لخواص خلقه و أتباعهم.

(وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ)دينه و شرعه

(حَنِيفًاۗ)مائلا عن الشرك إلى التوحيد و عن التوجه للخلق إلى الإقبال على الخالق

(وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا)و الخُلة أعلى أنواع المحبة

و هذه المرتبة حصلت للخليلين محمد و إبراهيم عليهما الصلاة و السلام

*و أما المحبة من الله فهى لعموم المؤمنين و إنما اتخذ الله إبراهيم خليلا لأنه وفَّى بما أُمر به و قام بما ابْتُلى به فجعله الله إماما للناس و اتخذه خليلا و نوه بذكره فى العالمين.

*البخارى 3904 عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﵁قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-

«إِنَّ مِنْ أَمَنِّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَ مَالِهِ أَبَا بَكْرٍ وَ لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا مِنْ أُمَّتِي لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ إِلَّا خُلَّةَ الإِسْلاَمِ لاَ يَبْقَيَنَّ فِي المَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلَّا خَوْخَةُ أَبِي بَكْرٍ»

*مسلم (532)عن جُنْدَبٌ قَالَ:-سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺقَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وَ هُوَ يَقُولُ:-

«إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ فَإِنَّ اللهِ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا

وَ لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا125

(وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا)

و هذه الآية الكريمة فيها بيان إحاطة الله تعالى بجميع الأشياء126

فأخبر أنه له(وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ)

أى:الجميع ملكه و عبيده فهم المملوكون و هو المالك المتفرد بتدبيرهم

(وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا)و قد أحاط علمه بجميع المعلومات و بصره بجميع المبصرات

و سمعه بجميع المسموعات و نفذت مشيئته و قدرته بجميع الموجودات و وسعت رحمته أهل الأرض

و السماوات و قهر بعزه و قهره كل مخلوق و دانت له جميع الأشيا126

(وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ) النساء و الأسرة 127-130

الاستفتاء:–طلب السائل من المسئول بيان الحكم الشرعى فى ذلك المسئول عنه.

فأخبر عن المؤمنين أنهم يستفتون الرسول ﷺفى حكم النساء المتعلق بهم فتولى الله هذه الفتوى بنفسه فقال:–

(قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ)يبيِّن لكم الأمور(فِيهِنَّ)

–فاعملوا على ما أفتاكم به فى جميع شئون النساء من:–القيام بحقوقهن و ترك ظلمهن عموما و خصوصا

و هذا أمر عام يشمل جميع ما شرع الله أمرا و نهيا في حق النساء الزوجات و غيرهن الصغار و الكبار

*الصحيح المسند من أسباب النزول:البخارى

4574 -عن عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَأَلَ عَائِشَةَ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {وَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لاَ تُقْسِطُوا فِي اليَتَامَى}

فَقَالَتْ:-يَا ابْنَ أُخْتِي هَذِهِ اليَتِيمَةُ تَكُونُ فِي حَجْرِ وَلِيِّهَا تَشْرَكُهُ فِي مَالِهِ وَ يُعْجِبُهُ مَالُهَا وَ جَمَالُهَا

فَيُرِيدُ وَلِيُّهَا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا بِغَيْرِ أَنْ يُقْسِطَ فِي صَدَاقِهَا فَيُعْطِيَهَا مِثْلَ مَا يُعْطِيهَا غَيْرُهُ

فَنُهُوا عَنْ أَنْ يَنْكِحُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يُقْسِطُوا لَهُنَّ وَ يَبْلُغُوا لَهُنَّ أَعْلَى سُنَّتِهِنَّ فِي الصَّدَاقِ

فَأُمِرُوا أَنْ يَنْكِحُوا مَا طَابَ لَهُمْ مِنَ النِّسَاءِ سِوَاهُنَّ قَالَ عُرْوَةُ: قَالَتْ عَائِشَةُ:-

و إِنَّ النَّاسَ اسْتَفْتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺبَعْدَ هَذِهِ الآيَةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: {وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ} [النساء: 127] "

قَالَتْ عَائِشَةُ:-وَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى:-{وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ} [النساء: 127]:-

رَغْبَةُ أَحَدِكُمْ عَنْ يَتِيمَتِهِ حِينَ تَكُونُ قَلِيلَةَ المَالِ وَ الجَمَالِ قَالَتْ: فَنُهُوا أَنْ يَنْكِحُوا عَنْ مَنْ رَغِبُوا فِي مَالِهِ وَ جَمَالِهِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ إِلَّا بِالقِسْطِ مِنْ أَجْلِ رَغْبَتِهِمْ عَنْهُنَّ إِذَا كُنَّ قَلِيلاَتِ المَالِ وَالجَمَالِ "

*ثم خص–بعد التعميم–الوصية بالضعاف من اليتامى و الولدان اهتماما بهم و زجرا عن التفريط فى حقوقهم فقال:–

(وَمَا)و يفتيكم أيضا بما(يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي)الـ(يَتَٰمَى)من(ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ)

و هذا إخبار عن الحالة الموجودة الواقعة فى ذلك الوقت

فإن اليتيمة إذا كانت تحت ولاية الرجل بخسها حقها و ظلمها إمـــا:–

1–بأكل مالها الذى لها أو بعضه

2–أو منعها من التزوج لينتفع بمالها خوفا من استخراجه من يده إنْ زوَّجها

3–أو يأخذ من مهرها الذى تتزوج به بشرط أو غيره هذا إذا كان راغبا عنها

4–أو يرغب فيها و هى ذات جمال و مال و لا يقسط فى مهرها

بل يعطيها دون ما تستحق فكل هذا ظلم يدخل تحت هذا النص

و لهذا قال:–(وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ)ترغبون عن نكاحهن أو فى نكاحهن كما ذكرنا تمثيله.

و يفتيكم فى (وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ) الصغار أن :–

1–تعطوهم حقهم من الميراث و غيره

2–و أن لا تستولوا على أموالهم على وجه الظلم و الاستبداد.

(وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ)

أى:بالعدل التام و هذا يشمل القيام عليهم بإلزامهم أمر الله و ما أوجبه على عباده

فيكون الأولياء مكلفين بذلك يلزمونهم بما أوجبه الله.

و يشمل القيام عليهم في مصالحهم الدنيوية بتنمية أموالهم و طلب الأحظ لهم فيها و أن لا يقربوها إلا بالتى هي أحسن

و كذلك لا يحابون فيهم صديقا و لا غيره فى تزوج و غيره على وجه الهضم لحقوقهم.

و هذا من رحمته تعالى بعباده حيث حثّ غاية الحث على القيام بمصالح من لا يقوم بمصلحة نفسه لضعفه و فقد أبيه.

ثم حثّ على الإحسان عموما فقال:–

(وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ)لليتامى و لغيرهم سواء كان الخير متعديا أو لازما

(فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا)

قد أحاط علمه بعمل العاملين للخير قلة و كثرة حسنا و ضده فيجازى كُلا بحسب عمله 127

وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ
وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿١٢٨﴾
وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ
وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمٗا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن
قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدٗا
﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ
وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرٗا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا
فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿١٣٤﴾

(وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا)زوجها(نُشُوزًا)ترفعه عنها و عدم رغبته فيها

(أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ)

فالأحسن في هذه الحالة أن يصلحا بينهما صلحا بأن تسمح المرأة عن بعض حقوقها اللازمة لزوجها على وجه تبقى مع زوجها

1–إما أن ترضى بأقل من الواجب لها من النفقة أو الكسوة أو المسكن

2–أو القسم بأن تسقط حقها منه

3–أو تهب يومها و ليلتها لزوجها أو لضرتها.

فإذا اتفقا على هذه الحالة فلا جناح و لا بأس عليهما فيها لا عليها و لا على الزوج فيجوز حينئذ لزوجها البقاء معها على هذه الحال و هي خير من الفرقة

و لهذا قال:–(وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ)

*و يؤخذ من عموم هذا اللفظ و المعنى أن الصلح بين مَن بينهما حق أو منازعة في جميع الأشياء أنه خير من استقصاء كل منهما على كل حقه لما فيها من الإصلاح و بقاء الألفة و الاتصاف بصفة السماح

*و هو جائز في جميع الأشياء إلا إذا أحلّ حراما أو حرّم حلالا فإنه لا يكون صلحا و إنما يكون جورا.

*و اعلم أن كل حكم من الأحكام لا يتم و لا يكمل إلا بوجود مقتضيه و انتفاء موانعه

فمن ذلك هذا الحكم الكبير الذي هو الصلح فذكر تعالى المقتضى لذلك و نبه على أنه خير و الخير كل عاقل يطلبه و يرغب فيه فإن كان—مع ذلك—قد أمر الله به و حثّ عليه ازداد المؤمن طلبا له و رغبة فيه.

*و ذكر المانع بقوله:—(وَأُحۡضِرَتِ)جبلت(ٱلۡأَنفُسُ)على(ٱلشُّحَّ)و هو:—

1—عدم الرغبة فى بذل ما على الإنسان

2—و الحرص على الحق الذى له فالنفوس مجبولة على ذلك طبعا

أى:—فينبغى لكم أن تحرصوا على قلع هذا الخُلُق الدنيء من نفوسكم و تستبدلوا به ضده و هو السماحة:—

و هو بذل الحق الذى عليك و الاقتناع ببعض الحق الذى لك.

*فمتى وُفِقَ الإنسان لهذا الخُلُق الحسن:—

1—سَهُلَ حينئذ عليه الصلح بينه و بين خصمه و معامله

2—و تسهلت الطريق للوصول إلى المطلوب.

بخلاف من لم يجتهد في إزالة الشح من نفسه فإنه يعسر عليه الصلح و الموافقة لأنه لا يرضيه إلا جميع ماله و لا يرضى أن يؤدي ما عليه فإن كان خصمه مثله اشتد الأمر.

وَ الظَّاهِرُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ صُلْحَهُمَا عَلَى تَرْكِ بَعْضِ حَقِّهَا لِلزَّوْجِ وَ قَبُولِ الزَّوْجِ ذَلِكَ خَيْرٌ مِنَ الْمُفَارَقَةِ بِالْكُلِّيَّةِ كَمَا أَمْسَكَ النَّبِيُّ ﷺسَوْدَةَ بِنْتَ زَمْعة عَلَى أَنْ تَرَكَتْ يَوْمَهَا لِعَائِشَةَ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهَا وَ لَمْ يُفَارِقْهَا بَلْ تَرَكَهَا مِنْ جُمْلَةِ نِسَائِهِ وَ فِعْلُهُ ذَلِكَ لِتَتَأَسَّى بِهِ أُمَّتُهُ فِي مَشْرُوعِيَّةِ ذَلِكَ وَ جَوَازِهِ فَهُوَ أَفْضَلُ فِي حَقِّهِ ﷺ
وَ لَمَّا كَانَ الْوِفَاقُ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْفِرَاقِ قَالَ:-{وَالصُّلۡحُ خَيۡرٌ}
*الصُّلْحُ عِنْدَ الْمُشَاحَّة خَيْرٌ مِنَ الْفِرَاقِ وَ لِهَذَا لَمَّا كَبِرَتْ سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَة عَزْمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺعَلَى فِرَاقِهَا فَصَالَحَتْهُ عَلَى أَنْ يُمْسِكَهَا وَ تَتْرُكَ يَوْمَهَا لِعَائِشَةَ فَقَبِلَ ذَلِكَ مِنْهَا وَ أَبْقَاهَا عَلَى ذَلِكَ.
*البخارى 5212-عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ سَوْدَةَ بِنْتَ زَمْعَةَ وَهَبَتْ يَوْمَهَا لِعَائِشَةَ
«وَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺيَقْسِمُ لِعَائِشَةَ بِيَوْمِهَا وَ يَوْمِ سَوْدَةَ»
*الصحيح المسند من أسباب النزول:البخارى4601 - عَنْ عَائِشَةَ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهَا:
{وَإِنِ امۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا}[النساء: 128]قَالَتْ:-
"الرَّجُلُ تَكُونُ عِنْدَهُ الْمَرْأَةُ لَيْسَ بِمُسْتَكْثِرٍ مِنْهَا يُرِيدُ أَنْ يُفَارِقَهَا فَتَقُولُ:-
أَجْعَلُكَ مِنْ شَأْنِي فِي حِلٍّ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي ذَلِكَ "
*أبي داود2135-عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ:-قَالَتْ عَائِشَةُ:
«يَا ابْنَ أُخْتِى كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺلَا يُفَضِّلُ بَعْضَنَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْقَسْمِ مِنْ مُكْثِهِ عِنْدَنَا و كَانَ قَلَّ يَوْمٌ إِلَّا وَ هُوَ يَطُوفُ عَلَيْنَا جَمِيعًا فَيَدْنُو مِنْ كُلِّ امْرَأَةٍ مِنْ غَيْرِ مَسِيسٍ حَتَّى يَبْلُغَ إِلَى الَّتِى هُوَ يَوْمُهَا فَيَبِيتَ عِنْدَهَا»
وَ لَقَدْ قَالَتْ سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ:- حِينَ أَسَنَّتْ وَ فَرِقَتْ أَنْ يُفَارِقَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺيَا رَسُولَ اللَّهِ
يَوْمِي لِعَائِشَةَ فَقَبِلَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺمِنْهَا قَالَتْ:-نَقُولُ فِي ذَلِكَ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى وَ فِي أَشْبَاهِهَا أُرَاهُ قَالَ:-
{وَإِنِ امۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا} [النساء: 128]

*الحاكم 3205 -عَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ أَنَّهُ كَانَتْ تَحْتَهُ امْرَأَةٌ قَدْ خَلَا مِنْ سِنِّهَا فَتَزَوَّجَ عَلَيْهَا شَابَّةً فَآثَرَ الْبِكْرَ عَلَيْهَا فَأَبَتِ امْرَأَتُهُ الْأُولَى أَنْ تَقَرَّ عَلَى ذَلِكَ فَطَلَّقَهَا تَطْلِيقَةً حَتَّى إِذَا بَقِيَ مِنْ أَجَلِهَا يَسِيرٌ
قَالَ: إِنْ شِئْتِ رَاجَعْتُكِ وَ صَبَرْتِ عَلَى الْأَثَرَةِ وَ إِنْ شِئْتِ تَرَكْتُكِ حَتَّى يَخْلُوَ أَجَلُكِ.
قَالَتْ: بَلْ رَاجِعْنِي أَصْبِرْ عَلَى الْأَثَرَةِ فَرَاجَعَهَا ثُمَّ آثَرَ عَلَيْهَا فَلَمْ تَصْبِرْ عَلَى الْأَثَرَةِ فَطَلَّقَهَا الْأُخْرَى وَآثَرَ عَلَيْهَا الشَّابَّةَ قَالَ: فَذَلِكَ الصُّلْحُ الَّذِي بَلَغَنَا أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَنْزَلَ فِيهِ

{وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا} [النساء: 128]

*و لا تنافى بين هذه الأقوال فإن حديث عائشة الأول مبهم و حديثها الثانى مفسر للإبهام
و أما حديث رافع فإنما قال إنها شاملة لما فعل و الآية تشمل الجميع

(وَإِن تُحْسِنُواْ)فى عبادة الخالق بأن يعبد العبد ربه كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإنه يراه

و تحسنوا إلى المخلوقين بجميع طرق الإحسان من نفع بمال أو علم أو جاه أو غير ذلك.

(وَتَتَّقُواْ)الله بفعل جميع المأمورات و ترك جميع المحظورات

أو تحسنوا بفعل المأمور و تتقوا بترك المحظور

(فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا)

قد أحاط به علما و خبرا بظاهره و باطنه فيحفظه لكم و يجازيكم عليه أتم الجزاء.
*أَيْ وَ إِنْ تَتَجَشَّمُوا مَشَقَّةَ الصَّبْرِ عَلَى مَنْ تَكْرَهُونَ مِنْهُنَّ وَ تُقْسِمُوا لَهُنَّ أُسْوَةَ أَمْثَالِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ عَالِمٌ بِذَلِكَ وَ سَيَجْزِيكُمْ عَلَى ذَلِكَ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ128

(وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ)
*لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْ تُسَاوُوا بَيْنَ النِّسَاءِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ فَإِنَّهُ وَ إِنْ حَصَلَ الْقَسْمُ الصُّورِيُّ:-
لَيْلَةً وَ لَيْلَةً فَلَا بُدَّ مِنَ التَّفَاوُتِ فِي الْمَحَبَّةِ وَ الشَّهْوَةِ وَ الْجِمَاعِ
*الأزواج لا يستطيعون و ليس في قدرتهم العدل التام بين النساء و ذلك لأن العدل يستلزم وجود المحبة على السواء و الداعى على السواء و الميل فى القلب إليهن على السواء ثم العمل بمقتضى ذلك.
و هذا متعذر غير ممكن فلذلك عفا الله عما لا يستطاع و نهى عما هو ممكن بقوله:-

(فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ)

أى: لا تميلوا ميلا كثيرا بحيث لا تؤدون حقوقهن الواجبة بل افعلوا ما هو باستطاعتكم من العدل.

فالنفقة و الكسوة و القسم و نحوها عليكم أن تعدلوا بينهن فيها بخلاف الحب و الوطء و نحو ذلك

(فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ)فإن الزوجة إذا ترك زوجها ما يجب لها صارت كالمعلقة التى:-

1-لا زوج لها فتستريح و تستعد للتزوج

2-و لا ذات زوج يقوم بحقوقها.

(وَإِن تُصۡلِحُواْ)

1-ما بينكم و بين زوجاتكم بـ:-إجبار أنفسكم على فعل ما لا تهواه النفس احتسابا و قياما بحق الزوجة

2-و تصلحوا أيضا فيما بينكم و بين الناس

3-و تصلحوا أيضا بين الناس فيما تنازعوا فيه

و هذا يستلزم الحث على كل طريق يوصل إلى الصلح مطلقا كما تقدم.

(وَتَتَّقُواْ)الله بفعل المأمور و ترك المحظور و الصبر على المقدور.

(فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا)يغفر ما صدر منكم من الذنوب و التقصير في الحق الواجب و يرحمكم كما عطفتم على أزواجكم و رحمتموهن(١٢٩)

*الحالة الثالثة بين الزوجين إذا تعذر الاتفاق فإنه لا بأس بالفراق:-

(وَإِن يَتَفَرَّقَا)بطلاق أو فسخ أو خلع أو غير ذلك

(يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا)من الزوجين

(مِّن سَعَتِهِۦۚ)من فضله و إحسانه الواسع الشامل.

فيغنى الزوج بزوجة خير له منها و يغنيها من فضله و إن انقطع نصيبها من زوجها

فإن رزقها على المتكفل بأرزاق جميع الخلق القائم بمصالحهم و لعل الله يرزقها زوجا خيرا منه

(وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا)كثير الفضل واسع الرحمة وصلت رحمته و إحسانه إلى حيث وصل إليه علمه.

و لكنه مع ذلك(حَكِيمٗا)يعطى بحكمة و يمنع لحكمة فإذا اقتضت حكمته منع بعض عباده من إحسانه بسبب من العبد لا يستحق معه الإحسان حَرَمه عدلا و حكمة(١٣٠)

توحيد الله و الأمر بالقسط و الإيمان 131-136

(وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ)

يخبر تعالى عن عموم ملكه العظيم المستلزم تدبيره بجميع أنواع التدبير و تصرفه بأنواع التصريف قدرا و شرعا

(وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ)

فتصرفه الشرعي أن وصى الأولين و الآخرين أهل الكتب السابقة و اللاحقة بالتقوى المتضمنة للأمر و النهى و تشريع الأحكام و المجازاة لمن قام بهذه الوصية بالثواب و المعاقبة لمن أهملها و ضيعها بأليم العذاب

و لهذا قال:-(وَإِن تَكۡفُرُواْ)بأن تتركوا تقوى الله و تشركوا بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا

فإنكم لا تضرون بذلك إلا أنفسكم و لا تضرون الله شيئا و لا تنقصون ملكه و له عبيد خير منكم و أعظم و أكثر مطيعون له خاضعون لأمره. و لهذا رتب على ذلك قوله:-

(فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا)

له الجود الكامل و الإحسان الشامل الصادر من خزائن رحمته التى لا ينقصها الإنفاق و لا يغيضها نفقة سحاء الليل و النهار

*لو اجتمع أهل السماوات و أهل الأرض أولهم و آخرهم فسأل كل واحد منهم ما بلغت أمانيه ما نقص من ملكه شيئا ذلك بأنه جواد واجد ماجد عطاؤه كلام و عذابه كلام إنما أمره لشيء إذا أراد أن يقول له كن فيكون.

*و من تمام غناه أنه كامل الأوصاف إذ لو كان فيه نقص بوجه من الوجوه لكان فيه نوع افتقار إلى ذلك الكمال بل له كل صفة كمال و من تلك الصفة كمالها و من تمام غناه أنه لم يتخذ صاحبة و لا ولدا و لا شريكا فى ملكه و لا ظهيرا ولا معاونا له على شيء من تدابير ملكه.

*و من كمال غناه افتقار العالم العلوى و السفلى فى جميع أحواله و شئونهم إليه و سؤالهم إياه جميع حوائجهم الدقيقة و الجليلة فقام تعالى بتلك المطالب و الأسئلة و أغناهم و أقناهم و مَنَّ عليهم بلطفه وهداهم.

(حَمِيدًا)الحميد من أسماء الله تعالى الجليلة الدال على أنه هو المستحق لكل حمد و محبة و ثناء و إكرام و ذلك لما اتُّصْفَ به من:-

1-صفات الحمد التى هى صفة الجمال و الجلال

2-و لما أنعم به على خلقه من النِّعم الجزال فهو المحمود على كل حال.

*و ما أحسن اقتران هذين الاسمين الكريمين الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ !!

*فإنه غنى محمود فله كمال من غناه و كمال من حمده و كمال من اقتران أحدهما بالآخر.

*كقوله (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ) التغابن: ٦

*هو الغنى الحميد الذي له القدرة الكاملة و المشيئة النافذة فيكم131

(وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ)ثم كرر إحاطة ملكه لما فى السماوات و ما فى الأرض

(وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا)عالم قائم بتدبير الأشياء على وجه الحكمة

فإن ذلك من تمام الوكالة فإن الوكالة تستلزم :-

1-العلم بما هو وكيل عليه

2-و القوة و القدرة على تنفيذه و تدبيره

3-و كون ذلك التدبير على وجه الحكمة و المصلحة فما نقص من ذلك فهو لنقص بالوكيل و الله تعالى منزه عن كل نقص132

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾غيركم هم أطوع لله منكم و خير منكم

و فى هذا تهديد للناس على:–

1–إقامتهم على كفرهم

2–و إعراضهم عن ربهم

فإن الله لا يعبأ بهم شيئا إن لم يطيعوه و لكنه يمهل و يملى و لا يهمل.

كقوله ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ محمد: ٣٨

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾133

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾

ثم أخبر أن مَن كانت همته و إرادته دنية غير متجاوزة ثواب الدنيا و ليس له إرادة في الآخرة فإنه قد قصر سعيه و نظره

و مع ذلك فلا يحصل له من ثواب الدنيا سوى ما كتب الله له منها فإنه تعالى هو المالك لكل شيء الذى عنده ثواب الدنيا و الآخرة فليطلبا منه و يستعان به عليهما فإنه لا ينال ما عنده إلا بطاعته

و لا تدرك الأمور الدينية و الدنيوية إلا بالاستعانة به و الافتقار إليه على الدوام.

و له الحكمة تعالى فى توفيق من يوفقه و خذلان من يخذله و في عطائه و منعه

و لهذا قال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾134

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ
إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ
وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ
وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ﴿١٣٧﴾
بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ
أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ﴿١٣٩﴾ وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ
أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ
إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ)يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا (قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ)

و القوَّام صيغة مبالغة أى:-كونوا فى كل أحوالكم قائمين بالقسط الذى هو العدل فى:-

1-حقوق الله 2-و حقوق عباده

أولا:-حقوق الله فالقسط فى حقوق الله أن :-لا يستعان بنعمه على معصيته بل تصرف فى طاعته.

ثانيا:-و القسط فى حقوق الآدميين

1- أن تؤدى جميع الحقوق التى عليك كما تطلب حقوقك.

2-فتؤدى النفقات الواجبة و الديون

3-و تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به من-الأخلاق و المكافأة و غير ذلك

4-و من أعظم أنواع القسط القسط فى المقالات و القائلين :-

فلا يحكم لأحد القولين أو أحد المتنازعين لانتسابه أو ميله لأحدهما بل يجعل وجهته العدل بينهما

5-و من القسط أداء الشهادة التى عندك على أي وجه كان حتى على الأحباب بل على النفس

و لهذا قال:-(شُهَدَآءَ لِلَّهِ)مؤيدين للشهادة

(وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ)

أي: فلا تراعوا الغني لغناه و لا الفقير بزعمكم رحمة له بل اشهدوا بالحق على من كان.

*و القيام بالقسط من أعظم الأمور و أدل على:-

1- دين القائم به

2-و ورعه و مقامه فى الإسلام

فيتعين على من نصح نفسه و أراد نجاتها:-

1-أن يهتم له غاية الاهتمام

2-و أن يجعله نُصْب عينيه و محل إرادته

2-و أن يزيل عن نفسه كل مانع و عائق يعوقه عن إرادة القسط أو العمل به.

و أعظم عائق لذلك اتباع الهوى و لهذا نبه تعالى على إزالة هذا المانع بقوله:-

(فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ)شهوات أنفسكم المعارضة للحق

(أَن تَعْدِلُوا۟)فإنكم إن اتبعتموها عدلتم عن الصواب و لم توفقوا للعدل

*فإن الهوى إما أن يعمى بصيرة صاحبه حتى يرى الحق باطلا و الباطل حقا

*و إما أن يعرف الحق و يتركه لأجل هواه

فمن سلم من هوى نفسه وُفِقَ للحق و هدى إلى الصراط المستقيم.

*كقوله﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ المائدة: ٨

* و لما بيَّن أن الواجب القيام بالقسط نهى عن ما يضاد ذلك فقال:-

(وَإِن تَلْوُۥٓا۟)هـــــو:-

1-لى اللسان عن الحق فى الشهادات و غيرها

2-و تحريف النطق عن الصواب المقصود من كل وجه أو من بعض الوجوه

*و يدخل فى ذلك:-

1-تحريف الشهادة و عدم تكميلها

2-أو تأويل الشاهد على أمر آخر فإن هذا من اللى لأنه الانحراف عن الحق.

(أَوْ تُعْرِضُوا۟)تتركوا القسط المنوط بكم كترك الشاهد لشهادته و ترك الحاكم لحكمه الذى يجب عليه القيام به.

*كقوله﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ البقرة: ٢٨٣

(فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)

محيط بما فعلتم يعلم أعمالكم خفيها و جليها

و فى هذا تهديد شديد للذى يلوى أو يعرض.

و من باب أولى و أحرى الذى يحكم بالباطل أو يشهد بالزور لأنه أعظم جرما لأن الأولين تركا الحق و هذا ترك الحق و قام بالباطل135

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ)

كقوله(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ)الحديد: ٢٨

*اعلم أن الأمر إما أن يوجه إلى من لم يدخل فى الشيء و لم يتصف بشيء منه فهذا يكون أمرا له في الدخول فيه و ذلك كأمر من ليس بمؤمن بالإيمان كقوله(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ) الآية.

و إما أن يوجه إلى من دخل فى الشيء فهذا يكون أمره ليصحح ما وجد منه و يحصل ما لم يوجد

و منه ما ذكره الله فى هذه الآية من أمر المؤمنين بالإيمان

فإن ذلك يقتضى:-

1-أمرهم بما يصحح إيمانهم من الإخلاص و الصدق و تجنب المفسدات و التوبة من جميع المنقصات.

2-و يقتضى أيضا الأمر بما لم يوجد من المؤمن من علوم الإيمان وأعماله

*فإنه كلما وصل إليه نص و فهم معناه و اعتقده فإن ذلك من الإيمان المأمور به.

*و كذلك سائر الأعمال الظاهرة و الباطنة كلها من الإيمان كما دلت على ذلك النصوص الكثيرة و أجمع عليه سلف الأمة.

3-ثم الاستمرار على ذلك و الثبات عليه إلى الممات كما قال تعالى:-

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

*و أمر هنا بالإيمان به و برسوله و بالقرآن و بالكتب المتقدمة فهذا كله من الإيمان الواجب الذى لا يكون العبد مؤمنا إلا به إجمالا فيما لم يصل إليه تفصيله و تفصيلا فيما علم من ذلك بالتفصيل

فمن آمن هذا الإيمان المأمور به فقد اهتدى و أنجح.

(وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ)هَذَا جِنسٌ يَشْمَلُ جَمِيعَ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ وَ قَالَ فِي الْقُرْآنِ:-(نَزَّلَ):-
لِأَنَّهُ نَزَلَ مُفَرَّقًا مُنَجَّمًا عَلَى الْوَقَائِعِ بِحَسَبِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْعِبَادُ إِلَيْهِ فِي مَعَادِهِمْ وَ مَعَاشِهِمْ

وَ أَمَّا الْكُتُبُ الْمُتَقَدِّمَةُ فَكَانَتْ تَنْزِلُ جُمْلَةً وَاحِدَةً وَ لِهَذَا قَالَ: (وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ)

(وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا)

أَيْ: فَقَدْ خَرَجَ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى وَ بَعُدَ عَنِ الْقَصْدِ كُلَّ الْبُعْدِ.

*و أى ضلال أبعد من ضلال من ترك طريق الهدى المستقيم و سلك الطريق الموصلة له إلى العذاب الأليم؟

واعلم أن الكفر بشيء من هذه المذكورات كالكفر بجميعها لتلازمها وامتناع وجود الإيمان ببعضها دون بعض136

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا)

من تكرر منه الكفر بعد الإيمان فاهتدى ثم ضل وأبصر ثم عمى و آمن ثم كفر و استمر على كفره و ازداد منه

أحوال الناس و جزاؤهم 137-167

(لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا)

فإنه بعيد من التوفيق و الهداية لأقوم الطريق و بعيد من المغفرة لكونه أتى بأعظم مانع يمنعه من حصولها.

فإن كفره يكون عقوبة و طبعًا لا يزول كما قال تعالى:-

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

خصائص المنافقين و النهى عن الجهر بالسوء 137-149

و دلت الآية:-

أنهم إن لم يزدادوا كفرا بل رجعوا إلى الإيمان و تركوا ما هم عليه من الكفران فإن الله يغفر لهم و لو تكررت منهم الردة.

*و إذا كان هذا الحكم فى الكفر فغيره من المعاصى التى دونه من باب أولى أن العبد لو تكررت منه ثم عاد إلى التوبة عاد الله له بالمغفرة(١٣٧)

(بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ)البشارة تستعمل فى الخير و تستعمل فى الشر بقيد كما فى هذه الآية.

*هم الذين أظهروا الإسلام و أبطنوا الكفر بأقبح بشارة و أسوئها و هو العذاب الأليم

(بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)138و ذلك بسبب:-

(ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ)

1-محبتهم الكفار و موالاتهم و نصرتهم

2-و تركهم لموالاة المؤمنين فأى شيء حملهم على ذلك؟

(أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ)كقوله (مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا)فاطر: ١٠

*كقوله (وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ) المنافقون: ٨

و هذا هو الواقع من أحوال المنافقين ساء ظنهم بالله و ضعف يقينهم بنصر الله لعباده المؤمنين

و لحظوا بعض الأسباب التى عند الكافرين و قصر نظرهم عمّا وراء ذلك

←فاتخذوا الكافرين أولياء يتعززون بهم و يستنصرون.

(فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا)و الحال أن العزة لله جميعا فإن نواصى العباد بيده و مشيئته نافذة فيهم.

و قد تكفل بنصر دينه و عباده المؤمنين و لو تخلل ذلك بعض الامتحان لعباده المؤمنين

و إدالة العدو عليهم إدالة غير مستمرة فإن العاقبة و الاستقرار للمؤمنين

و فى هذه الآية :-

1-الترهيب العظيم من موالاة الكافرين

2-و ترك موالاة المؤمنين و أن ذلك من صفات المنافقين

3–و أن الإيمان يقتضى محبة المؤمنين و موالاتهم و بغض الكافرين و عداوتهم.

4-التهييج على طلب العزة من جناب الله و الالتجاء الى عبوديته و الانتظام فى جملة عباده المؤمنين الذين لهم لنصرة فى الحياة الدنيا و يوم يقوم الاشها139

(وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ)

و قد بيَّن الله لكم فيما أنزل عليكم حكمه الشرعى عند حضور مجالس الكفر و المعاصى

(أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ)يستهان(بِهَا)

و ذلك أن الواجب على كل مكلف في آيات الله الإيمان بها و تعظيمها و إجلالها و تفخيمها

و هذا المقصود بإنزالها و هو الذي خَلَق الله الخَلْق لأجله فضد الإيمان الكفر بها وضد تعظيمها الاستهزاء بها و احتقارها

و يدخل فى ذلك :–

1–مجادلة الكفار و المنافقين لإبطال آيات الله و نصر كفرهم.

2–و كذلك المبتدعون على اختلاف أنواعهم فإن احتجاجهم على باطلهم يتضمن الاستهانة بآيات الله لأنها لا تدل إلا على حق و لا تستلزم إلا صدقا

3–بل و كذلك يدخل فيه حضور مجالس المعاصى و الفسوق التى يستهان فيها بأوامر الله و نواهيه و تُقْتَحم حدوده التى حدها لعباده و منتهى هذا النهى عن القعود معهم

(فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ)كقوله (وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ) الأنعام: ٦٨

(حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ)غير الكفر بآيات الله و الاستهزاء بها.

(إِنَّكُمْ إِذًا)إن قعدتم معهم في الحال المذكورة

(مِّثْلُهُمْ ۗ)لأنكم رضيتم بكفرهم و استهزائهم و الراضى بالمعصية كالفاعل لها

و الحاصل أن من حضر مجلسا يُعْصَى الله به←فإنه يتعين عليه الإنكار عليهم مع القدرة أو القيام مع عدمها.

(إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا)

كما اجتمعوا على الكفر و الموالاة و لا ينفع الكافرين مجرد كونهم في الظاهر مع المؤمنين كما قال تعالى:–

(يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ)إلى آخر الآيات140

ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ
قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ
وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ
وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾
مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ
عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾
إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ
وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ﴿١٤٧﴾

*ثم ذكر تحقيق موالاة المنافقين للكافرين و معاداتهم للمؤمنين فقال:-(ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ)

ينتظرون الحالة التى تصيرون عليها و تنتهون إليها من خير أو شر قد أعدوا لكل حالة جوابا بحسب نفاقهم.

(فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ)

فيظهرون أنهم مع المؤمنين ظاهرا و باطنا ليسلموا من القدح و الطعن عليهم و ليشركوهم فى الغنيمة و الفيء و لينتصروا بهم.

(وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ)و لم يقل فتح لأنه لا يحصل لهم فتح يكون مبدأ لنصرتهم المستمرة بل غاية ما يكون أن يكون لهم نصيب غير مستقر حكمة من الله.

*إِدَالَةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ كَمَا وَقَعَ يَوْمَ أُحُدٍ فَإِنَّ الرُّسُلَ تُبْتَلَى ثُمَّ يَكُونُ لَهَا الْعَاقِبَةُ

فإذا كان ذلك (قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ)نستولى(عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ)يتصنعون عندهم بـ:-

1-كف أيديهم عنهم مع القدرة

2-و منعهم من المؤمنين بجميع وجوه المنع فى تفنيدهم و تزهيدهم فى القتال

3-و مظاهرة الأعداء عليهم و غير ذلك مما هو معروف منهم.

*سَاعَدْنَاكُمْ فِي الْبَاطِنِ وَ مَا أَلَوْنَاهُمْ خَبَالًا وَ تَخْذِيلًا حَتَّى انْتَصَرْتُمْ عَلَيْهِمْ.

(فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ)

فيجازي المؤمنين ظاهرا و باطنا بالجنة و يعذب المنافقين و المنافقات و المشركين و المشركات.

(وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا)تسلطا و استيلاء عليهم

*بل لا تزال طائفة من المؤمنين على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم و لا من خالفهم

و لا يزال الله يحدث من أسباب النصر للمؤمنين و دفعٍ لتسلط الكافرين ما هو مشهود بالعيان.

حتى إن بعض المسلمين الذين تحكمهم الطوائف الكافرة قد بقوا محترمين لا يتعرضون لأديانهم و لا يكونون مستصغرين عندهم بل لهم العز التام من الله فله الحمد أوّلا وآخرًا و ظاهرًا و باطنًا.

*قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: عَنْ يُسَيْعٍ الْكِنْدِيِّ قَالَ:-جَاءَ رَجُلٌ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ فَقَالَ:-كَيْفَ هَذِهِ الْآيَةُ:-

{وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلا}؟فَقَالَ عَلِيٌّ ﷺ: ادْنُه ادْنُهْ ثُمَّ قَالَ:-

{فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلا}

*وَ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ:{وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلا}

أَيْ:فِي الدُّنْيَا بِأَنْ يُسَلَّطُوا عَلَيْهِمُ اسْتِيلَاءَ اسْتِئْصَالٍ بِالْكُلِّيَّةِ وَ إِنْ حَصَلَ لَهُمْ ظَفَرٌ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:-{إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ51 يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ}[غَافِرٍ] .

وَ عَلَى هَذَا فَيَكُونُ رَدًّا عَلَى الْمُنَافِقِينَ فِيمَا أَمَلُوْهُ وَ تَرَبَّصُوهُ وَ انْتَظَرُوهُ مِنْ زَوَالِ دَوْلَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَ فِيمَا سَلَكُوهُ مِنْ مُصَانَعَتِهِمُ الْكَافِرِينَ خَوْفًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْهُمْ إِذَا هُمْ ظَهَرُوا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فَاسْتَأْصَلُوهُمْ

كَمَا قَالَ تَعَالَى: {فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ}[الْمَائِدَةِ: 52]141

* يخبر تعالى عن المنافقين بما كانوا عليه من قبيح الصفات و شنائع السمات فقال

(إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ)فطريقتهم مخادعة الله تعالى أى:-

بما أظهروه من الإيمان و أبطنوه من الكفران ظنوا أنه يروج على الله و لا يعلمه و لا يبديه لعباده

كقوله(يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ) البقرة: ٩

(وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ)و الحال أن الله خادعهم فمجرد وجود هذه الحال منهم و مشيهم عليها خداع لأنفسهم.

و أي خداع أعظم ممن يسعى سعيًا يعود عليه بالهوان و الذل و الحرمان؟

*و يدل بمجرده على نقص عقل صاحبه حيث جمع بين المعصية و رآها حسنة و ظنها من العقل و المكر فلله ما يصنع الجهل و الخذلان بصاحبه.

1-هُوَ الَّذِى يَسْتَدْرِجُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ وَ ضَلَالِهِمْ وَ يَخْذُلُهُمْ عَنِ الْحَقِّ وَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ فِي الدُّنْيَا

2–و من خداعه لهم يوم القيامة ما ذكره الله فى قوله:–

(يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ* يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ)... إلى آخر الآيات.

*البخارى6499 -عَنْ سَلَمَةَ قَالَ: سَمِعْتُ جُنْدَبًا يَقُولُ:-

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَ لَمْ أَسْمَعْ أَحَدًا يَقُولُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺغَيْرَهُ فَدَنَوْتُ مِنْهُ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: -قَالَ النَّبِيُّ ﷺ

«مَنْ سَمَّعَ(شهر بنفسه و أذاع ذكره وقيل عمل عملا على غير إخلاص يريد أن يراه الناس ويسمعوه)سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ(كشفه على حقيقته وفضح أمره)

وَ مَنْ يُرَائِي(يطلع الناس على عمله بقصد الثناء منهم)يُرَائِي اللَّهُ بِهِ»

(يطلع الناس على حقيقته وأنه لا يعمل لوجه الله تعالى فيذمه الناس مع استحقاق سخط الله تعالى عليه)

« وَ »من صفاتهم أنهم(وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ)–إن قاموا–التى هى أكبر الطاعات العملية

(قَامُواْ كُسَالَىٰ)متثاقلين لها متبرمين من فعلها و الكسل لا يكون إلا من فقد الرغبة من قلوبهم

فلولا أن قلوبهم فارغة من الرغبة إلى الله و إلى ما عنده عادمة للإيمان لم يصدر منهم الكسل

*كقوله(وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ) التوبة: ٥٤

*البخارى 657 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:-

«لَيْسَ صَلَاةٌ أَثْقَلَ عَلَى الْمُنَافِقِينَ مِنَ الفَجْرِ وَ العِشَاءِ وَ لَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَ لَوْ حَبْوًا
لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ الْمُؤَذِّنَ فَيُقِيمَ ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا يَؤُمُّ النَّاسَ ثُمَّ آخُذَ شُعَلًا مِنْ نَارٍ فَأُحَرِّقَ عَلَى مَنْ لاَ يَخْرُجُ إِلَى الصَّلَاةِ بَعْدُ»

*البخارى 644 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه:-أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺقَالَ:-

«وَ الَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِحَطَبٍ فَيُحْطَبَ ثُمَّ آمُرَ بِالصَّلَاةِ فَيُؤَذَّنَ لَهَا ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا فَيَؤُمَّ النَّاسَ ثُمَّ أُخَالِفَ(أقصد و خالف إليه إذا غاب عنه)إِلَى رِجَالٍ فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ
وَ الَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَوْ يَعْلَمُ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ يَجِدُ عَرْقًا(عظما عليه بقية لحم قليلة) سَمِينًا
أَوْ مِرْمَاتَيْنِ(مثنى مرماة و هى ظلف الشاة أى قدمها)حَسَنَتَيْنِ لَشَهِدَ العِشَاءَ»(لحضر صلاة العشاء)

(يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ)

هذا الذى انطوت عليه سرائرهم و هذا مصدر أعمالهم مراءاة الناس يقصدون رؤية الناس و تعظيمهم و احترامهم و لا يخلصون لله

فلهذا (وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا)لامتلاء قلوبهم من الرياء

فإن ذكر الله تعالى و ملازمته لا يكون إلا من مؤمن ممتلئ قلبه بمحبة الله و عظمته.

*مسلم(622) عَنِ الْعَلَاءِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ فِي دَارِهِ بِالْبَصْرَةِ حِينَ انْصَرَفَ مِنَ الظُّهْرِ وَ دَارُهُ بِجَنْبِ الْمَسْجِدِ فَلَمَّا دَخَلْنَا عَلَيْهِ قَالَ: أَصَلَّيْتُمُ الْعَصْرَ؟ فَقُلْنَا لَهُ:-
إِنَّمَا انْصَرَفْنَا السَّاعَةَ مِنَ الظُّهْرِ قَالَ:-فَصَلُّوا الْعَصْرَ فَقُمْنَا فَصَلَّيْنَا فَلَمَّا انْصَرَفْنَا قَالَ:-

سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَىِ الشَّيْطَانِ

قَامَ فَنَقَرَهَا (المراد بالنقر سرعة الحركات كنقر الطائر)أَرْبَعًا لَا يَذْكُرُ اللهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا 143

(مُّذَبْذَبِينَ)مترددين(بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ)فريق المؤمنين(وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ)فريق الكافرين

فلا من المؤمنين ظاهرا وباطنا و لا من الكافرين ظاهرا و باطنا أعطوا باطنهم للكافرين و ظاهرهم للمؤمنين

و هذا أعظم ضلال يقدر.

*كقوله(كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ) البقرة: ٢٠

*مسلم (2784) عَنِ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:-
«مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ(المترددة الحائرة لا تدري أيهما تتبع)بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ تَعِيرُ(تتردد وتذهب)إِلَى هَذِهِ مَرَّةً وَ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً»

*و لهذا قال:(وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا)

طريقا لهدايته و لا وسيلة لترك غوايته لأنه انغلق عنه باب الرحمة و صار بدله كل نقمة

كقوله(فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا)الكهف: ١٧ (مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ) الأعراف: ١٨٦

*فهذه الأوصاف المذمومة تدل بتنبيهها على أن المؤمنين متصفون بضدها من الصدق ظاهرا و باطنا

و الإخلاص و أنهم لا يجهل ما عندهم و نشاطهم فى صلاتهم و عباداتهم و كثرة ذكرهم لله تعالى.

و أنهم قد هداهم الله و وفقهم للصراط المستقيم.

فليعرض العاقل نفسه على هذين الأمرين و ليختر أيهما أولى به و بالله المستعان 143

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ)لا توالوا الجاحدين لدين الله

(مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ)و تتركوا موالاة المؤمنين و مودتهم.

*ذكر أن من صفات المنافقين اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين نهى عباده المؤمنين أن يتصفوا بهذه الحالة القبيحة و أن يشابهوا المنافقين فإن ذلك موجب لأن

(أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا)حجة واضحة على عقوبتكم(مُّبِينًا)

فإنه قد أنذرنا و حذرنا منها و أخبرنا بما فيها من المفاسد فسلوكها بعد هذا موجِب للعقاب.

*و فى هذه الآية دليل على:-

1- كمال عدل الله

2-و أن الله لا يُعَذِّب أحدا قبل قيام الحجة عليه

و فيه التحذير من المعاصى فإن فاعلها يجعل لله عليه سلطانا مبينا 144

(إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا)

*رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ:-{إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار} قَالَ:
الدَّرْكُ الْأَسْفَلُ بُيُوتٌ لَهَا أَبْوَابٌ تُطْبَقُ عَلَيْهِمْ فَتُوقَدُ مِنْ تَحْتِهِمْ وَ مِنْ فَوْقِهِمْ.

*لما يخبر تعالى عن مآل المنافقين أنهم فى أسفل الدركات من العذاب و أشر الحالات من العقاب.

فهم تحت سائر الكفار لأنهم شاركوهم بالكفر بالله و معاداة رسله و زادوا عليهم المكر و الخديعة و التمكن من كثير من أنواع العداوة للمؤمنين على وجه لا يشعر به و لا يحس.
و رتبوا على ذلك جريان أحكام الإسلام عليهم و استحقاق ما لا يستحقونه فبذلك و نحوه استحقوا أشد العذاب و ليس لهم منقذ من عذابه و لا ناصر يدفع عنهم بعض عقابه
و هذا عام لكل منافق إلا مَنْ مَنَّ الله عليهم بالتوبة من السيئات.
(إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ)له الظواهر و البواطن
(وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ)و التجأوا إليه فى جلب منافعهم و دفع المضار عنهم.
(وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ)الذى هو الإسلام و الإيمان و الإحسان
(لِلَّهِ)فقصدوا وجه الله بأعمالهم الظاهرة و الباطنة وسلِمُوا من الرياء و النفاق فمن اتصف بهذه الصفات
(فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ)فى الدنيا و البرزخ و يوم القيامة
(وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا)
لا يعلم كنهه إلا الله مما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر.
و تأمل كيف خص الاعتصام و الإخلاص بالذكر مع دخولهما في قوله:–(وَأَصْلَحُوا)
لأن الاعتصام و الإخلاص من جملة الإصلاح لشدة الحاجة إليهما خصوصا في هذا المقام الحرج الذى يمكن من القلوب النفاق فلا يزيله إلا شدة الاعتصام بالله و دوام اللجأ و الافتقار إليه في دفعه
و كون الإخلاص منافيا كل المنافاة للنفاق فذكرهما لفضلهما و توقفِ الأعمال الظاهرة و الباطنة عليهما
و لشدة الحاجة فى هذا المقام إليهما.
*و تأمل كيف لما ذكر أن هؤلاء مع المؤمنين لم يقل:–و سوف يؤتيهم أجرا عظيما مع أن السياق فيهم.
بل قال:–(وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا)لأن هذه القاعدة الشريفة–لم يزل الله يبدئ فيها و يعيد إذا كان السياق في بعض الجزئيات
و أراد أن يرتب عليه ثوابًا أو عقابا و كان ذلك مشتركًا بينه و بين الجنس الداخل فيه رتب الثواب فى مقابلة الحكم العام الذى تندرج تحته تلك القضية و غيرها و لئلا يتوهم اختصاص الحكم بالأمر الجزئى
فهذا من أسرار القرآن البديعة فالتائب من المنافقين مع المؤمنين و له ثوابهم146
*ثم أخبر تعالى عن كمال غناه و سعة حلمه و رحمته و إحسانه فقال:–
(مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ)إن أصلحتم العمل
(وَءَامَنتُمۡۚ)بالله و رسولهﷺفإن الله سبحانه غنى عمَّن سواه و إنما يعذب العباد بذنوبهم.

(وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا)و الحال أن الله شاكر عليم.

يعطي المتحملين لأجله الأثقال الدائبين فى الأعمال جزيل الثواب و واسع الإحسان.

*و من ترك شيئًا لله أعطاه الله خيرًا منه.

*و مع هذا يعلم ظاهركم و باطنكم و أعمالكم و ما تصدر عنه من إخلاص و صدق و ضد ذلك.

و هو يريد منكم التوبة و الإنابة و الرجوع إليه فإذا أنبتم إليه فأى شىء يفعل بعذابكم؟

فإنه لا يتشفى بعذابكم و لا ينتفع بعقابكم بل العاصى لا يضر إلا نفسه كما أن عمل المطيع لنفسه.

و الشكر هو خضوع القلب و اعترافه بنعمة الله و ثناء اللسان على المشكور و عمل الجوارح بطاعته

و أن لا يستعين بنعمه على معاصيه. 147